

الحلّة البهية في بيان بعض السّنن الإلهية

تأليف
أبي عبد الرحمن
الدكتور فيصل بن مسفر بن معوض الزّناي الوادعي

تقدّم فضيلة الشيخ العلامة
يحيى بن علي الجبوري حفظه الله

محفوظ جميع الحقوق

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تنبيه: جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف فلا يسمح بإعادة نشر
هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، أو إضافة
أو حذف أو شرح أو اختصار أو تغيير أو تبديل إلا بإذن من
المؤلف.

للتواصل: ٩٦٧٧٧١٧٧١٩١+

مُقَدِّمَةُ الشَّيْخِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ الْحَجُورِيِّ حَفِظَهُ اللَّهُ

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع
هداه.

أما بعد: فقد اطلعت على رسالة: «الحُلَّةُ الْبَهِيَّةُ فِي بَيَانِ بَعْضِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ»،
تأليف أخينا المفضل الداعي إلى الله: **فيصل بن مسفر الوادعي** - حفظه الله -
فرأيت أنه جمع في هذه الرسالة خمسين سنة من السنن الإلهية بأدلتها، وأقوال أهل
العلم عليها فكانت رسالة مفيدة.

فجزى الله أخانا الطبيب السلفي فيصل الوادعي خيراً ونفع به.

كتبه: يحيى بن علي الحجوري

٢١ / محرم ١٤٣١ هـ

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله **القائل:** ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة

محمد: ٢٤] نحمده تعالى، ونُصلي ونسلم على رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبعد: فإن الله سبحانه خلق الخلق وأجري عليهم سُننا لا تتغير ولا تتبدل، كل ذلك بحكمة منه سبحانه، وحثنا على التدبر والاتعاظ بتلك السُنن، **فقال سبحانه:** ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧] **وقال سبحانه:** ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف: ١١١].

وتدبر هذه السُنن التي أجزاها الله على خلقه يتم من خلال تأمل كتابه الكريم، المنزل رحمة للعالمين، وبياناً للناس، ونوراً، وضياءً، وكذلك سُننة سيد المرسلين الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

قال السنقبطي رحمه الله في "أضواء البيان" عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ﴾: وقد ذمَّ **رحمته** المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [سورة السجدة: ٢٢] ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر.

* وقد شكَا النبي ﷺ إلى ربه من هَجْر القرآن كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٠] فتدبر القرآن وتفهمه وتعلّمه والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين.

* وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس كما ثبت في الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩] اهـ.

قلت: وَمِنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَفْهَمِهِ دِرَاسَةُ السُّنَنِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا فَإِنْ هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ بِهِ يَزِيدُ الْإِيمَانَ وَالْيَقِينَ، وَبِهِ تَظْهَرُ حِكْمَةُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كما في "مجموع الفتاوى" (٤/١٣)، [ط/دار الوفاء]: وهو ﷺ كما يفرق بين الأمور المختلفة، فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة، فيحكم في الشيء خلقاً، وأمرًا بحكم مثله لا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسوي بينهما.

ثم قال رحمه الله: وقد بين ﷺ أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع. **والسنة:** هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني، مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر سبحانه بالاعتبار وقال: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة يوسف: ١١١].

والاعتبار: أن يقرن الشيء بمثله، فيعلم أن حكمه مثل حكمها. **قال ابن عباس** رضي الله عنه: هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان؟

فإذا قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [سورة الحشر: ٢] **وقال:** ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [سورة يوسف: ١١١] أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جُوزي مثل جزائهم، ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار، وليرغب أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٧٧﴾ [سورة الإسراء: ٧٦-٧٧].

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ [سورة الأحزاب: ٦٠-٦١].

ثم قال رحمته الله: والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تتبدل ولن تتحول، وسنته عادته التي يسوي بها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة؛ ولهذا **قال:** ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [سورة القمر: ٤٣].

وقال: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سورة الصافات: ٢٢] أي: أشباههم ونظراءهم.

وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [سورة التكوين: ٧] قَرَنَ النُّظِيرَ بِنُظِيرِهِ.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

وقال: ﴿وَالسَّيْقُوتَ الْأُولَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠] فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة.

وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۚ لَا أَقُولُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُسْتَغْفَرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الممتحنة: ٤] اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر بعض الموانع التي تمنع من تدبر كتاب الله وعدم قبول الحق الذي فيه **نقال:** (فأما لو ترك القلب وحاله التي فُطر عليها فارغاً عن كل ذكر، خالياً عن كل فكر، فقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه، ويرى الحق الذي لا ريب فيه، فيؤمن بربه وينيب إليه.

فإن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء لا يحس فيها من جدعاء: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

وكما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا، ومطالب الجسد، وشهوات النفس، فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه، فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء.

ثم الهوى قد يتعرض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق، كما قيل: (حبك الشيء يعمي ويصم)، فيبقى في ظلمة الأفكار، وكثيراً ما يكون ذلك عن كبر يمنعه عن أن يطلب بالحق: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل: ٢٢].

وقد يعرض له الهوى بعد أن عرف الحق فيجحد، ويعرض عنه، كما قال ربنا سبحانه فيهم: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦] اهـ.

فعلّم بهذا أن دراسة سنن الله في خلقه أمر مهم، وطالما سمعنا من مجالس شيخنا يحيى بن علي الحجوري حفظه الله ومتّعنا بعلمه أهمية خدمة كتاب الله ﷻ وأنه ينبغي لكل طالب علم أن يكون له نصيب في خدمة كتاب الله، وأن لا يغفل العلوم التي فيه فإنه أساس العلوم، وهو مفتاح كل خير، فإنه كلام رب العالمين.

لهذا استعنت بالله في جمع ما تيسر لي جمعه من السُّنن التي أجزاها الله على خلقه وبين عبادَه، بأدلتها من الكتاب والسنة والفوائد المتحققة منها، مستفيداً في ذلك من كتب التفاسير المعتمدة عند أهل السنة، ومن كتب العقائد والشروح المهمة.

* استفدت من بعض الكتب التي تكلمت في هذا الموضوع، ولا أعلم حال أصحابها طارحاً كل ما يخالف عقيدة أهل السنة مما يستدل به بعض أصحاب تلك الكتب بهذه السُّنن على بعض الأفكار المنحرفة والعقائد الضالة. وهذه السُّنن كثيرة جداً واستقصاؤها يطول، وكلام الله لا تنقضي عجائبه، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

👉 ولعل الله ينفع بهذا الكتاب صاحبه والمسلمين، ويجعل فيه ملاذاً، وملجأً لمن أراد التفكير في حكمة الله سبحانه وسُننه، **قال الله تعالى: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾** [سورة العنكبوت: ٤٣].

* فمن اشتدت عليه الأمور، وكثرت عليه الهموم، رجع إلى سنة الله في العسر، وأنه لا بد أن يعقبه اليسر، فيطمئن لذلك.

- ومن أُوذِيَ في الله، وكثُرَ إيذاؤه رجع إلى سنة الله في إيذاء المرسلين والصالحين، فيتسلَّى بذلك، ورجع إلى سُنَّة النصر مع الصبر، والعاقبة للتقوى، وأن هذه الدار دار ابتلاء فيثبته الله بهذا.

- ومن ضاق عليه سبب الرزق رجع إلى سنة الله في تفضيل بعض خلقه على بعض في الرزق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى فيقنع بما أتاه الله.

- ومن رزقه الله علماً أو مالاً أو سلطاناً فوسوست له نفسه بالتطاول والتكبر
رجع إلى سُنة الله في المتكبرين، وسُنته فيمن جحد وكفر النعمة فيكون عوناً له
بإذن الله على الرجوع عن هذه الأمراض الخطيرة، وهكذا بقية السنن.
أسأل الله سبحانه أن ينفعني والمسلمين بهذا، وأن يخلص النية والطويّة،
ونسأله سبحانه أن يُعيدنا من فتنة المحيا والممات، وأن يتوفانا مسلمين،
والحمد لله رب العالمين.

خَصَائِصُ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ

١- الثِّبَات:

المقصود به أنها لا تتغير عن ماهيتها، وأن ما أجرى الله به العادة لم يتهياً لأحد أن يقلب تلك العادة، ولا أن يخالفها الله ﷻ بغيرها، لأنها مقتضى حكمته تعالى وعلمه، قال الله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. وقعت النكرة ﴿تَبْدِيلًا﴾ في سياق النفي، ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ يفيد عموم عدم وقوع أي تبديل من أي وجه لسنة الله.

وقال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣]
وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٥].

٢- الاطراد:

قال شيخ الإسلام رحمه الله في "كتاب النبوات": فإن الله ﷻ في الحقيقة لا ينقض عاداته، التي هي سنته القاضية بالتسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، ويدل على اطرادها أيضاً أن الله تعالى قصَّ علينا قصص الأمم السابقة وما حلَّ بها من العذاب لتتعظ ونعتبر.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [١٣٧] هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣].

٣- العموم:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [سورة القمر: ٤٣].

والمعنى يخاطب كفار قريش ليس الذين كفروا منكم خيرًا من أولئكم الأمم التي تقدم ذكرها، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب.

ولهذا ختمت الآيات هذه بما يؤيد عموم هذه السنة، **فقال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [سورة القمر: ٥١] يعني: لقد حق الهلاك على أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة والمكذبين بالرسل، فلتكن لكم فيهم عظة وعبرة.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [سورة محمد: ١٠].

مَوَارِدُ اسْتِخْرَاجِ السُّنَنِ

موارد استخراجها الكتاب والسنة كالقصاص القرآني عن الأمم السابقة، والأمثال القرآنية، وآيات الحث على السير والتفكير، والآيات المشتملة على ربط الأسباب بالمسببات.

وقوله تعالى في سنة الرزق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣].

وقوله في سنة التيسير: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٤].

وقوله في سنة النصر: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٧].

وقوله في سنة الإهلاك: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [سورة الكهف: ٥٩].

وقوله في سنة الابتلاء: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٥].

وقوله في سنة التمكين: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٠].

ضوابط استخراج السنن

لفظة «سنة» أو مشتقاتها بعد تقرير حكم أو قبله.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

[سورة النساء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ

خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجر: ١٠-١٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعَفَّرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا

فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨]، والآيات كثيرة.

١- ورود فعل الله مع تعليله:

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا عَمَلْتُمْ﴾ [سورة

الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [سورة

محمد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، والآيات كثيرة.

٢- ورود فعل الله مع تعليقه بالسبب، وحروف السببية متعددة:

أ- الباء: قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ يَدُونِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٦] وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٩]، والآيات كثيرة.

ب- الفاء: قال تعالى: ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سورة سبأ: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشَوْهَا إِسْوَىٰ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦]

ج - حرف إن المشددة ذات الهمزة المكسورة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣١] وقال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة الدخان: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوِيءٌ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٧].

٣- ورود فعل الله في سياق جملة الشرط والجزاء:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٨] والآيات كثيرة.

٤- ورود فعل الله أو امتناعه منوطاً بحال أو صفة أو غاية: وغالبا ما تصدر هذه الجمل بنفي، أو كون منفي، أو لفظة (كم)، أو (كأين).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود: ١١٧] **وقال تعالى:** ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [سورة القصص: ٥٩] **وقال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا﴾ [سورة القصص: ٥٨] **وقال تعالى:** ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٥] **وقال تعالى:** ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٩].

٥- ورود لفظة (كذلك) أو (وكذلك) في سياق قصة أو حكم من الله ﷻ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة يونس: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَنْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة المرسلات: ١٦-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاثِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة القصص: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[سورة الأنعام: ١٢٩].

السنة الأولى

أذية الأنبياء والصالحين وإخراجهم من ديارهم

* جاء بيان هذه السنة في الأدلة من الكتاب والسنة ومن ذلك:

١ - **قال تعالى:** ﴿وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) **سُنَّة** مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) [سورة الإسراء: ٧٦-٧٨].

قال ابن كثير رحمه الله: قيل: نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه ما لبثوا بمكة بعده إلا يسيرًا.

وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدٍ على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلَّطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم. ولهذا **قال تعالى:** ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ [سورة الإسراء: ٧٧] الآية، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسُلنا وأذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتهم العذاب، ولولا أنه رسول الرحمة لَجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحدٍ به. ولهذا **قال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣] اهـ.

٢ - **وقال الله تعالى:** ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمُ

فَلَا نَصِرَ لَهُمْ﴾ [سورة محمد: ١٣].

قال ابن كثير رحمه الله: هذا تهديد شديد، ووعد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء.

فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة، فإنه رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، **قال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣]. اهـ.

٣- **وقال الله تعالى:** ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

٤- **وقال الله تعالى:** ﴿إِلَّا نَنْصُرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

٥- **وقال الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [سورة الممتحنة: ١].

٦- **وقال الله تعالى:** ﴿أَلَا تَقْنِطُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [سورة التوبة: ١٣].

٧- وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا

أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٣].

٨- وقال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٨].

٩- وقال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا لَوْطٍ مِّن

قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٦].

١٠- وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [سورة

الشعراء: ١٦٧].

١١- عن عائشة رضي الله عنها في قصة نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وفيه فقال

ورقة بن نوفل: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنُصْرُكَ نَصْرًا مُّؤَزَّرًا. رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: استبعد النبي ﷺ أن يخرجوه لأنه لم يكن فيه

سبب يقتضي الإخراج، لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدّم من خديجة ووصفها.

وقد استدل ابن الدغنة بتلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج، وذكر ورقة

العلة في ذلك وهي مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيئون إلى ذلك وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم.

١٢- عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري، قال: رأيت رسول الله ﷺ

واقفا على الحزورة، فقال: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَيَّ اللَّهُ،

وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». رواه الترمذي، وصححه الألباني كما في
 «المشكاة» (٢٧٢٥).

وفي هذه السنة من الفوائد:

- ١ - أن فيها تسليّة لكل داعٍ إلى الله إذا أوزي من قبل قومه أو من غيرهم، فإن هذه سنة الله، وأن أرض الله واسعة، فإذا ضيق عليه في مكان خرج إلى غيره ليدعو إلى الله وليقيم دين الله.
 - ٢ - وفيها الحرص على مناصرة من آذاه قومه في الله، كما قال ورقة بن نوفل، وكما هو حال الأنصار مع رسول الله ﷺ.
 - ٣ - وفيها أن من أشدّ الأشياء على النفس هو إخراجها من أرضها وعشيرتها.
 - ٤ - وفيها خطورة معاداة أولياء الله ورسله وأذيتهم، وأن ذلك من أسباب الهلاك.
 - ٥ - وفيها الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنه سبحانه يتلي الصالحين، فأشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الأئمة، فالأئمة، وما هذا إلا لعظيم قدرهم عند الله.
- قال الله تعالى:** ﴿تُجْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦].

السنة الثانية

لا يعذب الله أمة ونبیهم فيهم

* بَيَّنَّ اللهُ هَذِهِ السَّنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
[سورة الأنفال: ٣٢-٣٣].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ عِدَّةَ أَقْوَالٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ
عِنْدِي فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ تَأْوِيلُهُ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ يَا
مُحَمَّدُ، وَبَيْنَ أَظْهَرِهِمْ حَتَّى أَخْرَجَكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، لِأَنِّي لَا أَهْلِكَ قَرْيَةً وَفِيهَا
نَبِيَّهَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَكَفَرِهِمْ، وَلَكِنْهُمْ لَا
يَسْتَغْفِرُونَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ مَصْرُورُونَ عَلَيْهَا، فَهُمْ لِلْعَذَابِ مُسْتَحَقُونَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي "إِعْلَامِ الْمُوقَعِينَ" (٢/٣٩٨): وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ تَعَالَى
لِنَبِيِّهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣]، كَيْفَ يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ
إِذَا كَانَ وَجُودُ بَدَنِهِ وَذَاتِهِ فِيهِمْ، دَفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَهُمْ أَعْدَاءُهُ؟ فَكَيْفَ وَجُودُ
سِرِّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَوُجُودِ مَا جَاءَ بِهِ، إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ أَوْ كَانَ فِي شَخْصٍ؟
فَلَيْسَ دَفْعُهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى؟ أَهـ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا
يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ [سورة الإسراء: ٧٦-٧٧].

قال البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: وسُنة الله في الرسل إذا كذبتهم أممهم أن لا يعذبهم ما دام نبههم بين أظهرهم فإذا خرج نبههم من بين أظهرهم عذبهم. اهـ.

* **وبين النبي** ﷺ هذه السنة في الحديث الذي رواه مسلم (٦٤١٣)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

قال النوري رحمه الله: قول النبي ﷺ: «وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ»، أي: من الفتن والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً وقد وقع كل ذلك. اهـ.

قلت: ففيه بيان أن وجود النبي ﷺ بين أظهرهم أمان لهم من الاختلاف والفتن، ومن حلول العذاب بهم.

قال القاضي رحمه الله في «الشفاء»: وقال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سُنَّتُه باقية فهو باق، فإذا أُميتت سُنَّتُه فانتظروا البلاء والفتن. اهـ.

الفوائد

- ١- أن الأمان مرتبط بوجود النبي ﷺ بذاته ووجود سنته، فلم يبق الآن بعد موته إلا سنته، فالتمسك بها والعض عليها بالنواجذ، وذب الكذب والتحريف عنها والدعوة إليها، هو سبب الأمان لهذه الأمة من العذاب ومن الفتن والبلايا.
- ٢- كلما بُعد الناس عن هدي رسول الله ﷺ، كلما ازدادت عليهم الفتن والبلايا.
- ٣- عِظَمَ قدر النبي ﷺ عند ربه، وكرامته على ربه، وكذلك الأنبياء قبله.
- ٤- الحذر من إيذاء الصالحين، المتمسكين بالكتاب والسنة، وطردهم وإخراجهم سواء كان من قرية أو كان من مسجد، لتحل به البدع والخرافات والحزبيات، فإن وجود الصالحين المقتفين لآثار رسول الله ﷺ أمان للناس من الفتن والمصائب.

السُّنَّةُ الثَّالِثَةُ

إِهْلَاكُ اللَّهِ لِلْقُرَى الْمَكْذِبَةِ

* بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ سُنَّتَهُ فِي الْقُرَى الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ أَنْ مَصِيرُهَا إِلَى الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ.

١ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الرِّيسَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٨].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا قَدْ كَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا سَيَهْلِكُهَا بِأَنْ يَبِيدَ أَهْلُهَا جَمِيعُهُمْ أَوْ يَعْذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا، إِمَّا بِقَتْلِ أَوْ ابْتِلَاءٍ بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة النحل: ١١٨].

٢ - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرًا﴾ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْبَلَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) [سورة الطلاق: ٨-١٠]. اهـ.

﴿ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ الْمَكْذِبَةَ بِجَمْعٍ مِنَ الْأَسْبَابِ حَذَّرَ مِنْهَا الرُّسُلَ أَقْوَامَهُمْ فَانْتَهَكُوهَا وَكَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، وَمِنْ أَهْمِهَا:

١ - الكفر بالله تعالى: قال الله تعالى: ﴿ كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ۝ ٦ ﴾ [سورة التغابن: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الروم: ٤٢].

٢ - التكذيب بآيات الله ورسله: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايِنَا

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿ كَذَبَتْ

قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ ١٢ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ ١٣ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ

دُجَّانَ كُلُّ كَذَّابٍ أَلْسِنَتُهُمْ مَبِينَةٌ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ١٤ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ١٥ ﴾

[سورة ق: ١٢-١٥].

٣ - الظلم: وقد أفرد في سنة مستقلة في هذا الكتاب.

٤ - المعاصي والذنوب: وقال تعالى: ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة

العنكبوت: ٤٠].

٥- **كفران النعمة: وقال تعالى:** ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً

مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النحل: ١١٢].

٦- **الاستكبار: قال تعالى:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ

أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة فاطر: ٤٢-٤٤].

٧- **الإسراف والترف والبطر: قال تعالى:** ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ

نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩].

وقال تعالى عن قوم لوط: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ

لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَآخَرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فاطر: ٤٢-٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ

﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُتَوَلَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١١-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بَطِرَ مَعِيشَتَهَا ۖ فَلَئِكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٨].

* وقد أمر الله بالتفكر والاعتبار في أحوال الأمم السابقة وكيف أهلكهم الله، حتى لا تقع هذه الأمة فيما وقعوا فيه فيهلكهم الله كما أهلك من كان قبلهم، **قال الله تعالى:** ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [سورة طه: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [سورة السجدة: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۖ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [سورة مريم: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا﴾ [سورة مريم: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة يس: ٣١].

* وكذلك بين الله سبحانه أن إهلاكه للقرى لم يكن بظلم منه، تعالى الله عن ذلك وإنما بسبب ذنوبهم وأنه لا يهلك قومًا إلا وقد أعذرهم وأقام الحجة عليهم، **قال الله تعالى:** ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ﴾ [سورة

الأنعام: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا﴾ [سورة

القصص: ٥٩].

*** وبين الله أن إهلاكه للقرى بأجل معلوم وموعد محدود لا يختلف، قال**

تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [سورة الحجر: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾

[سورة الكهف: ٥٩].

👉 والمقصود هو الاتعاظ والاعتبار، فإنه سبحانه شديد العقاب عزيز ذو انتقام، يُملي للظالمين والمكذبين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وسنته جارية في خلقه، ولكن الله يملي لبعض المكذبين حتى يأخذهم على حين غرة، فالواجب الابتعاد عن كل ما يسخط الله سبحانه ويجلب غضبه، والواجب الاستجابة والاستقامة على الطريقة المستقيمة. **قال تعالى:** ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (١٦) [سورة الجن: ١٦].

*** ومها بلغت قوة الأمم المكذبة وتمكنها في الأرض فإن ذلك لا يدفع عنها عقاب الله إذا هي كذبت رسل الله، قال الله تعالى:** ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٨].

قال السنقيطي رحمه الله في "أضواء البيان" عند الآية (٨) من سورة الزخرف: وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ، بأن الله أهلك من هم أقوى منهم ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء

موضحا في آيات أخر، **قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ﴾ [سورة الروم: ٩].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [سورة غافر: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ [سورة الأنعام: ٦]، إلى قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [سورة الأنعام: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سورة سبأ: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [سورة فاطر: ٤٤].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأُولِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٨] ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً ﷺ بصفته إهلاكهم وسنته فيهم التي هي العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحاً في آيات أخر، **قوله تعالى:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢) ﴿اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴿سورة فاطر: ٤٢-٤٤﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتِ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴿سورة غافر: ٨٣-٨٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿سورة الكهف: ٥٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿سورة فاطر: ٤٢-٥٧﴾.

الفوائد:

- ١ - الابتعاد عن الظلم والتكذيب بالحق لأنهما من أسباب الهلاك.
- ٢ - هوان الخلق على الله إذا كذبوه، وكذبوا رسله.
- ٣ - عدم الاغترار بما عليه أهل القرى من القوة والتمكين، فإنهم إن كذبوا وظلموا فسنة الله معلومة بهلاكهم.
- ٤ - أن الله نزه نفسه عن الظلم الذي كان اتصافهم به سبباً لهلاكهم **فقال:**
﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هُمْ يُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نُنَزِّلُ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾﴾ [سورة الشعراء: ٢٠٨-٢١٠]. **وقال:** ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا﴾ [سورة هود: ١١٧] **وقال:** ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٧].

👉 وهناك سنة إلهية أخرى متعلقة بهذه السنة ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه "شفاء العليل" ص (١٢٢):

قال رحمه الله: وهو يذكر التفريق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي، ويذكر **قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ١٦].

قال رحمه الله: وحق القول عليهم علة لتدميرهم فهكذا الأمر سبب لفسقهم ومقتض له، وذلك هو أمر التكوين لا التشريع، ثم إن إرادته سبحانه لإهلاكهم إنما كانت بعد معصيتهم ومخالفتهم لرسله، فمعصيتهم ومخالفتهم قد تقدمت فأراد الله إهلاكهم فعاقبهم بأن قدر عليهم الأعمال التي يتحتم معها الهلاك.

فإن قيل: فمعصيتهم السابقة سبب لهلاكهم، فما الفائدة في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا﴾ [سورة الإسراء: ١٦]، وقد تقدم الفسق منهم قيل المعصية السابقة؟ وإن كانت سبباً للهلاك لكن يجوز تخلف الهلاك عنها؟ ولا يتحتم كما هو عادة الرب تعالى المعلومة في خلقه، أنه لا يتحتم هلاكهم بمعاصيهم فإذا أراد إهلاكهم ولا بد أحدث سبباً آخر يتحتم معه الهلاك.

ألا ترى أن ثمود لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أخرج لهم الناقة فعقروها، فأهلكوا حينئذ، وقوم فرعون لم يهلكوا بكفرهم السابق بموسى حتى أراهم الآيات المتتابعات، واستحكم بغيهم وعنادهم وحينئذ أهلكوا، وكذلك قوم لوط لما أراد الله إهلاكهم أرسل إلى لوط الملائكة في صورة الأضياف فقصدوهم بالفاحشة، ونالوا من لوط وتواعدوه، وكذلك سائر الأمم إذا أراد الله إهلاكهم أحدث لهم بغياً وعدواناً يأخذها على أثره.

وهذه عادته مع عباده عموماً وخصوصاً، فيعصي العبد وهو يحلم عنه ولا يعاجله حتى إذا أراد أخذه قيّض له عملاً يأخذه به، مضافاً إلى أعماله الأولى، فيظن الظّان أنه أخذه بذلك العمل وحده وليس كذلك، بل حق عليه القول بأعماله الأولى، حيث عمل بعد ذلك ما يقرّر غضب الرب عليه أمضي حكمه عليه وأنفذه، **قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [سورة الزخرف: ٥٥] وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله، ولكن لم يكن غضبه سبحانه قد استقر واستحكم عليهم إذا كان بصدد أن يزول بإيمانهم، فلما قايس من إيمانهم تقرر الغضب واستحكم فحلت العقوبة.

فهذا الموضع من أسرار القرآن وأسرار التقدير الإلهي، وفكر العبد فيه من أنفع الأمور له فإنه لا يدري أي المعاصي هي الموجبة التي يتحتم عندها عقوبة، فلا يقال بعدها والله المستعان. اهـ كلام ابن القيم رحمه الله.

قلت: وقد بين الله هذه السنة في عدة آيات من كتابه:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [سورة

الأنعام: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ

كَذَلِكَ﴾ [سورة البقرة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة البقرة: ٢١١].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا

أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة: ١١٥].

السنة الرابعة الإملاء والاستدراج

* بين الله ﷻ في آيات كثيرة من كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ هذه السنة في خلقه، وهي أنه يُملي للظالم وللكافر ويستدرجه.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣) أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ [سورة الأعراف: ١٨٢-١٨٤].

قال ابن كثير رحمه الله: ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرِفُ أَلَايَتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿٤٦﴾ [سورة الأنعام: ٤٤-٤٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٤٥) [سورة القلم: ٤٥]، أي: قوي شديد.

٢ - وقال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٥٤) أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ [سورة المؤمنون: ٥٤-٥٧]. اهـ.

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٤]، أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٥]، أي: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤُوسُهُمْ﴾ [سورة الطارق: ١٧].

٣- وقال تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [سورة الحجر: ٣].

٤- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ بل لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٥٥-٥٧]، يعني: أياهم هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأولاد والأموال لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٥]، لقد اخطأوا في ذلك وخاب رجاءهم بل إنما نفعل ذلك استدراجًا وأنظارًا وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٦]، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ﴾ [سورة التوبة: ٥٥] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [سورة آل عمران: ١٧٨].

٥- وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة القلم: ٤٤-٤٥] الآية.

٦- وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة المدثر: ١١-١٢]، إلى قوله: ﴿عَنِيدًا﴾ [سورة المدثر: ١٦].

٧- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سورة سبأ: ٣٧] الآية، والآيات في هذا كثيرة.

نال قتاده في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ﴾ تسارع لهم في

الخيرت بل لا يشعرون ﴿٥٦﴾ [سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦]: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم: فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

٨- يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ

أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [سورة الرعد: ٣٢].

٩- قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى

الْمَصِيرِ﴾ [سورة الحج: ٤٨]، فبين أنه يملئ للظالم ثم يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى ؓ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي الظَّالِمَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: ١٠٢].

١٠- يقول الله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

[سورة الزخرف: ٢٩].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا

مُورًا﴾ [سورة الفرقان: ١٨].

١٢- وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ

الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٦].

١٣ - قال تعالى: ﴿وَأُمُّ سَنَمَةٍ تَلْعَلَهُمْ يُسَمُّهُمْ مِّنَ عَذَابِ الْإِيمِ﴾ [سورة هود: ٤٨].

١٤ - قال تعالى: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [سورة

لقمان: ٢٤].

١٥ - قال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

[سورة الحجر: ٣].

١٦ - قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [سورة الزمر: ٨].

الفوائد:

- ١ - عدم الاغترار بما عليه الكفار والمكذبون في هذه الحياة الدنيا، وإنما هم فيه إنما هو من الإملاء لهم، **قال تعالى:** ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧].
- ٢ - أن يخشى الإنسان على نفسه إذا فتحت عليه النعم وتزيت له الدنيا وكثرت له الأموال، فلعل هذا استدراج له من الله.
- ٣ - أن نعلم أن استدراج الله للعبد قد يكون بتركه على ظلمه وعدم تعجيل العقوبة له حتى يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وقد يكون الاستدراج بالنعم، قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ» رواه الترمذي عن كعب بن عياض رضي الله عنه، وقوله ﷺ: «أَبْشُرُوا وَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ». متفق عليه عن عمرو بن عوف رضي الله عنه.
- ٤ - أن يقصر الإنسان نفسه عن النظر والطمع فيما متع الله به بعض خلقه من زهرة الحياة الدنيا، كما **قال تعالى:** ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [سورة طه: ١٣١].
- ٥ - عدم الأمن من مكر الله، وعلى الإنسان أن يكون خائفًا وجلًا من الله سبحانه مع رجائه فيما عند الله.

السنة الخامسة

الابتلاء

* لقد بين الله ﷻ أن هذه الدنيا دار ابتلاء، فقال عز من قائل: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ أَمْلُكٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) [سورة الملك: ١-٢].

* وهذا الابتلاء قد يكون بالشر وقد يكون بالخير، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥].

* والابتلاء بالشر هو الذي يُراد عند الإطلاق، وقد تخفى حكمة هذا النوع على الكثيرين، إذ قد يُراد به اختبار الصدق في الإيمان والصبر على الجهاد في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) [سورة العنكبوت: ٢-٣].

وقد يُراد به التمهيد والتدريب على التمكين في الأرض، نظرًا لما يعقب هذا الابتلاء من الصبر في الشدائد وتحمل المشاق، واليقين بأن الله تعالى حكمه في كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ٢٤].

قال ابن القيم رحمه الله كما في «إغاثة اللهفان» (١٦٥/٢): **الفتنة نوعان**: فتنة الشبهات، وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد وقد يتفرد بإحدهما:

أما النوع الأول: وهو فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم، لا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، وهذه الفتنة مالها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم. وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة، ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد إتباع الرسول وتحكيمه في كل أمور الدين ظاهرة وباطنه.

أما النوع الثاني: من الفتنة ففتنة الشهوات، وقد جمع سبحانه بين الفتنتين في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا مَالًا وَوُلَدًا فَأَسْتَمْتُمْ بِنُحُوتِهِمْ فَمَا اسْتَمْتُمْ بِخَلْقِهِمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ [سورة التوبة: ٦٩]، أي: تمتعوا بنصيبتهم من الدنيا وشهواتها والخلاق: هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَحُضُّنَا كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [سورة التوبة: ٦٩]، فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق العمل. فالأول: فساد من جهة الشبهات، والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين، صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا قد أعمته دنياه **قال تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[سورة الفرقان: ٢٠].

ولأننا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر. ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين مُنوط بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿[سورة السجدة: ٢٤] [سورة السجدة: ٢٤] فدل على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين. اهـ.

أنواع الابتلاءات

ثم إن لهذا الابتلاء مجالات عديدة:

- ١ - فقد يكون ابتلاءً تكليفيًا، وهو الاختبار في المقدرة على حُسن العمل في هذه الحياة، وهو المراد في **قوله:** ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود: ٧]، وفي **قوله:** ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [سورة الملك: ٢].

٢- قد يكون الابتلاء فيما يصيب الإنسان في نفسه وأهله، وإلى هذا النوع أشارت الآية الكريمة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٥].

٣- قد يكون الابتلاء عامًا فيبتلي الله الناس بعضهم ببعض، وذلك إما برفع بعضهم على بعض درجات، **قال تعالى:** ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٥].

٤- قد يكون الابتلاء بالتفاوت بينهم في الغنى والفقر، **قال تعالى:** ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الشورى: ٢٧] **وقال:** ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة النحل: ٧١] **وقال تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٣].

٥- قد يكون الابتلاء بما يصيب الأمم من الزلازل والبراكين والفيضانات وغيرها، **قال تعالى:** ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٥٣].

٦- وقد يكون الابتلاء بالمعصية كما ابتلى الله آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة. وقد ذكر ابن القيم رحمته الله ثمرة هذا الابتلاء عندما قال: لو لم تكن التوبة أحب إلى الله لما ابتلي بالذنوب أكرم المخلوقات عليه آدم عليه السلام. فالتوبة هي غاية كل كمال آدمي، وقد كان كمال أبينا آدم عليه السلام بها.

٧- قد يكون الابتلاء بالنعمة والخير بأن يعطيه الله المال والجاه أو العافية والمنصب والأولاد ونحو ذلك، **قال الله** حاكياً عن سليمان **عَلَيْهِ السَّلَام**: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة النمل: ٤٠].

* وشكر النعمة يعقبها زيادتها وكفرانها يورث الطغيان والكبر والعجب والخيلاء **قال تعالى**: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١٥] **وقال تعالى**: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١٤] اهـ.

* وقد وردت آيات تُبين أن الله قد ابتلى بعض الأمم ومنهم المسلمون بتحريم الحلال في حالات مخصوصة، ليظهر من يطيعه ممن يعصيه ومن يكبح شهوات نفسه عن المألوف امتثالاً لأمر ربه ممن ينزلق وراء شهواته ومن ذلك:

١- الاختبار بالصيد السهل في حال الإحرام أو في الحرم: **قال تعالى**: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ ءَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٩٤] الآيات.

٢- **قول الله تعالى**: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٣] الآيات.

٣- قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا إِلَّا [سورة البقرة: ٢٤٩] الْآيَاتِ.

الفوائد:

١ - على العبد أن يعلم أنه في هذه الحياة الدنيا في دار ابتلاء واختبار، فيرضى بقضاء الله، وهذا الرضى تعود ثماره وفوائده في حياة العبد بالطمأنينة والسكينة، وفي آخرته بالشواب الجزيل، **قال الله تعالى:** ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١١].

٢ - من فوائد الإيمان بهذه السنة الإلهية، أن العبد يحسن عمله بإخلاصه لله وإتباعه للنبي ﷺ، **قال الله تعالى:** ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [سورة الملك: ٢].

👉 فإن الابتلاء التكليفي المراد منه من يحسن العمل من غيره، فإذا تقرر إيمان العبد بهذه السنة دفعه ذلك إلى أن يُحسن العمل.

٣ - **تَعَلَّمِ الصَّبْرَ عَلَى الْبَلَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿تَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْمَعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦].

👉 ويتقرر هذا الصبر من خلال التفكير في ابتلاء أنبياء الله ورسله واختصاص الأنبياء بشدة البلاء، فإنما هو لإظهار مواطن الأسوة والافتداء لأتباعهم من الناس، وأن ذلك تهيئة له لمقام النبوة، فقد جاء في سؤال هرقل لأبي سفيان كما في البخاري ومسلم: كيف كانت الحرب بينكم وبينه؟ فقال أبو سفيان: سجالاً يُدال علينا ونдал عليه، قال كذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة.

✽ وقد يُبتلي الله الأنبياء والصالحين في أعز ما يملكون من زينة الدنيا، وهذا البلاء لتفريغ القلب مما سوى الله، ولا يندرج تحته إلا الخُلص من الصالحين، كما قال تعالى في سياق قصة أمر الله لإبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الصافات: ١٠٦].

٤ - في الإيمان بهذه السنة تسلية للمؤمن بما يحصل له من المصائب، وأنه تكفير لسيئاته، ورفع لدرجته، قال عليه السلام: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» رواه الترمذي وغيره عن سعد بن أبي وقاص. وقال عليه السلام: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال عليه السلام: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال ابن القيم رحمه الله في «عدة الصابرين»: قال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس.

٥ - عدم الاغترار بما يُفتح للإنسان من زهرة الحياة الدنيا: وأن هذا قد يكون استدراجاً، كما تقدم قوله عليه السلام: «مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

٦ - وأن على الإنسان أن يكون خائفاً راجياً، وأن لا يأمن مكر الله تعالى.

٧ - فيه الرحمة بالخلق والتخفيف عنهم بكثرة الابتلاءات.

قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (٤ / ١٩٥): فلولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب

هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة الله أرحم الراحمين أن يتفقدته في الأحيان بأنواع من المصائب لتكون حمية له من هذه الأدواء وحفظاً لصحة عبوديته واستفراًغاً للمواد الفاسدة الرديئة المُهْلِكة، فسبحان من يرحم ببلائه. اهـ.

٨- فيه الإيمان بأن من أسماء الله تعالى (الحكيم)، فكل أفعاله سبحانه لها حكمة علمناها أم لم نعلمها، وليعلم أن حكمته في الابتلاء قد تكون للتمحيص حتى يعلم الله الصابر والشاكر من غيرهما، **قال تعالى:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣١].

* وكذلك كشف لما يُكِنُّه المنافقون الذين لا يثبتون عند الابتلاءات **قال تعالى:** ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ٣ ﴿[سورة العنكبوت: ٢-٣].

👉 وقد تكون الحكمة للإنذار حتى يرجعوا عما هم فيه، **قال تعالى:** ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٨]، وقد يكون الابتلاء للعقوبة كما في قصة أصحاب السبت وغير ذلك.

٩- من فوائد هذه السنة تصفية المؤمنين ومعرفة زيف المنافقين، فإن الابتلاءات تظهر ما يخفيه العبد ويُكِنُّه. فكم من مُبتلى بالمرض لما اشتد عليه المرض ذهب يطلب علاجه عند الكهان والعرافين والمشعوذين. وكم من مُبتلى بالفقر ذهب يطلب المال من وجوه الحرام، وكم من مُستخفٍ بين صفوف المؤمنين لما كثرت عليه الابتلاءات أظهر ما عنده من الريب والشك، **قال تعالى:** ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُؤَاتِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرُلُوزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ

نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [سورة البقرة: ٢١٤] **وقال تعالى:** ﴿وَالصَّابِرِينَ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣١].

👉 إذا تقرر الإيمان بهذه السنة، فإن ذلك دافع للعبد لكثرة الضراعة إلى ربه سبحانه إلى أن ينجيه من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يكثر من دعاء الله بأن يثبت قلبه، كما كان النبي ﷺ يكثر من قول: «اللهم يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

السُّنَّةُ السَّادِسَةُ

التَّدَافُعُ

*** اعلم رحمك الله:** أن الله ﷻ بيّن هذه السُّنَّةَ الإلهية وهي دفع الله الناس بعضهم ببعض في غير ما آية في كتابه العزيز، ويبيّن سبحانه الحكمة من ذلك وهي الدفاع عن المؤمنين، وإقامة الشرع العظيم، وحماية الأرض من فساد المفسدين، وغير ذلك من الحكم العظيمة كما سيأتي إن شاء الله.

١ - يخبر تعالى بعد أن ذكر قصة طالوت وجالوت، وجهاد نبي الله داود لجالوت ونصر عباده المؤمنين على قلة عددهم، **فَقَالَ:** ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١].

قال ابن كثير رحمه الله: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا...

ثم قال: ولكن الله ذو فضل على العالمين، أي: ذو من عليهم ورحمة بهم يدفع عنهم يبعضهم بعضا، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله. اهـ.

وفي هذه الآية نوع من أنواع المدافعة، وهو دفع أهل الباطل وذلك يتم بعده أمور إما بالجهاد في سبيل الله بالسيف، كما تقدم في قصة طالوت وجالوت وكما هو معلوم من جميع غزوات الرسول ﷺ وقتاله للمشركين، وجهاد

خلفائه الراشدين من بعده وملوك المسلمين لإقامة دين الله في الأرض ودفع شر أعداء الله.

وقد يكون الجهاد باللسان والقلم فيدفع الله شبه أهل الباطل وبدعهم وتحريفهم في دين الله بكلام أهل الحق من الأنبياء وورثتهم من العلماء، فكم دفع الله بأهل العلم من الشبه الكثيرة والبدع المتنوعة والإحداثيات في دين الله، وقاموا ببيان بطلانها وبيان الحق فيها وكتابة المؤلفات العظيمة في ذلك والنفاح عن هذا الدين، فحفظ الله بهم دينه من إفساد هؤلاء المفسدين الذي يعتبر من أعظم الإفساد في الأرض.

٢- **قال الله تعالى:** ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَكَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [سورة الحج: ٣٩-٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله: لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكشف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف. اهـ.

قال العلامة السعدي رحمه الله: في تفسيره عند هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فيدفع بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين، ﴿لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ﴾ [سورة الحج: ٤٠] أي: لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين، فلولا دفع الله

الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم وفتنوه عن دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله وعُمرت مساجدها وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين وبركتهم دفع الله عنها الكافرين. اهـ.

✽ وَيَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنْ حِكْمِ هَذَا الدَّفْعِ هُوَ الْإِخْتِبَارُ وَالِابْتِلَاءُ **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:**

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [سورة محمد: ٤]، **وَقَالَ**

تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[سورة

الفرقان: ٢٠]، **وَقَالَ:** ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنْ

بَيَّنَّا لِلَّهِ بِأَعْلَمَ بِالشَّكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ

عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [سورة الأنعام: ٦٥].

✽ ثم هناك نوع آخر من أنواع المدافعة، وهو تدافع أهل الباطل فيما بينهم

وهذا يقودنا إلى سنة إلهية أخرى مرتبطة بهذه السنة، ألا وهي سنة تولية

الظالمين بعضهم بعضا وسيأتي تفصيلها في هذا الكتاب.

الفوائد

٤- أن دفاع الله عن عباده يختلف، ولربما كان من وجه يخفى على كثير من الناس

٢- أن دفع الله الناس بعضهم ببعض من أسباب صلاح البلاد والعباد.

٣- أن دفع الله الناس بعضهم ببعض من أسباب حفظ الدين، وشعائره وما يتعلق به.

٤- أن يعلم أن الله بيده نواصي العباد جميعا يفعل ما يريد سبحانه، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

السُّنَّةُ السَّابِعَةُ

التَّدَاوُلُ

* سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَنَّهُ يَدَاوُلُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، لِحُكْمٍ عَظِيمَةٍ يَعْلَمُهَا سُبْحَانَهُ، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى** فِي سِيَاقِ ذِكْرِهِ لَغَزْوَةِ أَحَدٍ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧-١٤٢].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧]، أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين. ولهذا **قال تعالى:** ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧).

ثم **قال تعالى:** ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى﴾ [سورة آل عمران: ١٣٨]، يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى﴾، يعني: القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم. ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨)، أي: زاجر عن المحارم والمآثم.

ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩]، أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى، والعاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُوتُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، أي: إن كنتم قد إصابتم جراح وقتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداكم قريب من ذلك من قتل أو جراح ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُوتُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، أي: نذيل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠] قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠] يعني: يقتلون في سبيله، ويبدلون مهجهم في مرضاته.

قال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" (٣/ ١٩٩) في معرض سياقه لبعض الدروس والحكم التي كانت في غزوة أحد: ثم إنه أخبر أنه يُداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر يقسمها دولاً بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا. اهـ.

وقال الإمام الفخر أبو حفص عمر بن علي الدمشقي في "اللباب في علوم الكتاب": ومعنى مُداولة الأيام بين الناس أن مسارها لا تدوم وكذلك مضارها، فيوم يكون السرور للإنسان والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس، وليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى ينصر المؤمنين تارة وينصر الكافرين تارة، لأن نصر الله منصب شريف عظيم فلا يليق بالكافر بل المراد من هذه المداولة أنه تارة

يشدد المحنة على الكافرين وتارة على المؤمنين، وتشديد المحنة على المؤمن على المؤمن أدب له في الدنيا، وتشديد المحنة على الكافر غضب من الله تعالى عليه. اهـ.

وقد ذكر ابن كثير رحمته الله في "البداية والنهاية" [موارد في انقضاء دولة بني أمية] ذكر أثرًا عن مالك بن دينار قال: سمعت أبا الجوزاء يقول: والله ليعزَّن الله ملك بني أمية، كما أعزَّ ملك من كان قبلهم، ثم ليذل ملكهم كما أذل ملك من كان قبلهم، ثم تلا **قوله تعالى:** ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠] اهـ.

* وكم دولة قامت وهيمنت وملكأت أجزاء كبيرة من العالم، ولكنها طغت وتمردت واستكبرت وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمر الله فسقطت وتشردمت وأصبحت عبرة للمعتبرين، كما حصل لروسيا الشيوعية التي ملكت العالم ردحًا من الزمن ثم دمرها الله، ونسألُه سبحانه أن يُدمر أمريكا إنه على كل شيء قدير.

وقد بينَّ الله في غير ما آية هذه السُّنة أن الغلبة تكون لأهل الحق تارة ولأهل الباطل أخرى، ابتلاءً وتمييزًا وامتحانًا وتثبيتًا للثابت على الحق من الناكص.

١ - **قال الله تعالى:** ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ

وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ع ﴿ [سورة التوبة: ١٦]

٢ - **وقال تعالى:** ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ [سورة آل عمران: ١٤٠].

٣ - **وقال تعالى:** ﴿أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ أَنْ يُقُولُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ ٢ ﴿ [سورة

٤ - وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [سورة

محمد: ٤]

٥ - وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾

[سورة محمد: ٣١].

* وقد عاب الله على المنافقين عدم فهمهم لسنة التداول وبين أن عدم فهمها والانصياع لمدلولها إنما هو من صفات أهل الجاهلية المتخبطين، الذين يخلطون بين صفات الله وصفات رسوله ﷺ، وما يجوز وما يستحيل.

قال الله تعالى عن هؤلاء المنافقين في سياق عرض غزوة أحد: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُفَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل

عمران: ١٥٤].

* إن لله أمراً وله قدر وتيسير، وكذلك لرسوله ﷺ الدعوة والتشريع، وبذل الجهد في تأييد الدين، وهو في ذلك معصوم وليس معصوماً من جريان الأسباب الدنيوية عليه، ومن أن تكون الحرب بينه وبين عدوه سجالاً، فقد سأل هرقل أبا سفيان: كيف كان قتالكم له؟ فقال أبو سفيان: ينال منا وننال منه. فقال هرقل: وكذلك الإيمان حتى يتم.

وقد بينت الآية أن عدم فهمهم سنة التداول، وما ينبغي عليها من سنن النصر والهزيمة، يرجع إلى ظن الجاهلية الذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً، وأن هؤلاء المنافقين المتظاهرين بالإيمان في قلوبهم، فبقيت معارفهم كما في عهد الجاهلية.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن الأمثلة على هذه السنة وهي قصة عجيبة فيها عبرة لأهل هذا الشأن، ذكرها الشيخ محي بن علي الجهرري في كتابه "النصيحة المحتومة لقضاة السوء وعلماء الحكومة" قال حفظه الله:

قال ابن كثير رحمه الله في "البداية والنهاية" (١٥/١٢٣): [ابن مقلة الوزير] أحد الكتاب المشاهير، محمد بن علي بن الحسن بن عبد الله أبو علي المعروف بابن مقلة الوزير، وقد كان في أول عمره ضعيف الحال قليل المال، ثم آل به الحال إلى أن ولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء، المقتدر والقاهر والراضي، وعزل ثلاث مرات وقطعت يده ولسانه في آخر عمره وحبس، فكان يستسقي الماء بيده اليسرى وأسنانه وكان مع ذلك يكتب بيده اليمنى مع قطعها كما كان يكتب بها وهي صحيحة، وقد كان خطه من أقوى الخطوط كما هو مشهور عنه، وقد بني له داراً في زمان وزارته وجمع عند بنيانها خلقاً من المنجمين فاتفقوا على وضع أساسها في الوقت الفلاني، فأسس جدرانها بين العشائين كما أشار به المنجمون، فما لبث بعد استتمامها إلا يسيراً حتى خربت وصارت كوما، كما ذكرنا ذلك وذكرنا ما كتبوا على جدرانها وقد كان له بستان كبير جداً، عدة أجربة، أي: فدادين، وكان على جميعه شبكة من البريسم، وفيه أنواع الطيور من القمار والهزاز والبغ والبلابل والطواويس، وغير ذلك شيء كثير، وفي أرضه

من الغزلان وبقر الوحش والنعام وغير ذلك شيء كثير أيضًا، ثم صار هذا كله عن قريب بعد النظرة والبهجة والبهاء إلى الهلاك والبوار والفناء والزوال، وهذه سنة الله في المغترين الجاهلين الراكنين إلى دار الفناء والغرور.

* وقد أنشد فيه بعض الشعراء حين بني داره وبستانه وما اتسع فيه من متاع

الدنيا فقال:

قل لابن مقلّة لا تُكُنْ عَجلاً واصبر فإنك في أضغاث أحلام
تبني بأنقاض دور الناس مجتهداً داراً ستنقض أيضاً بعد أيام
ما زلت تختار سعد المشتري لها فكم نحوس به من نحس بهرام
إن القرآن وبطليموس ما اجتماعا في حال نقض ولا في حال إبرام
فعرّ ل ابن مقلّة عن وزارة بغداد وخربت داره، وانقلعت أشجاره، وقطعت
يده ثم قطع لسانه، وصودر بألف ألف دينار، ثم سُجن وحده، وليس معه من
يخدمه مع الكبر والضعف والضرورة وانعدام بعض أعضائه، حتى كان يستسقي
الماء بنفسه من بئر عميق فكان يدلي الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه، وقاسى
جهداً جهيداً بعد ما ذاق عيشاً رغيداً ومن شعره في يده:

ما سئمت الحياة لكنّ توثقت بأيّمانهم فبانت يميني
بعت ديني لهم بدنياهم حتى حرموني دنياهم بعد ديني
ولقد حُطت ما استطعت بجهدي حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانت يميني فيني

الفوائد:

٥- على المؤمن الصبر على أقدار الله وعدم التمرد على أوامر الله، وألا يغتر

بما عليه أعداء الله من التقلب في البلاد، **قال الله تعالى:** ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

[سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

٢- وأن يعلم أن الدهر بيد الله يقلبه كيف يشاء، فما عليه إلا أن يكون واثقاً

بربه حسن الظن به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﻋَظِيمٌ:

يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلُبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٩]، يعز من يشاء ويذل من

يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، ويعطي الملك من يشاء ويسلبه ممن

يشاء، وله في ذلك كله الحكمة البالغة.

٣- على المؤمن أن يشكر الله على نعمه، وأن لا يقابلها بالكفران، وأن يعلم

أنه في هذه الحياة بين سراء وضراء، وأن مسارها لا تدوم، وكذلك مضارها لا

تدوم، فإن أصابته سراء فليشكر، وإن إصابته ضراء فليصبر، فهو خير له.

٤- عليه أن يحلي النعم بالتواضع لله، فقد دخل النبي مكة متواضعاً متخشعاً

وهو فاتح لها مطأطئاً رأسه، شكراً لله على هذه النعمة.

كما أن أبا الدرداء اعتزل يبكي عند فتح تستر، فقالوا: تبكي في يوم أعز الله فيه

الإسلام وأهله؟ فقال: بينما هم أمة قائمة، لما عصوا الله انظر إلى ما صاروا.

فهذا حال السلف كانوا كثيري التفكير في حكم الله وفي سننه في الخلق، مما

جعلهم ذروة الشاكرين لله.

٦- من مالت إليه الدنيا عليه ألا يركن عليها، وليعلم أنها كما جاءت إليه
سوف تذهب لآخرين، ولو دامت لغيره ما وصلت إليه.

السُّنَّةُ الثَّامِنَةُ

الاستبدال

* لقد بين الله سبحانه أنه خلق الجن والإنس لعبادته، حيث **قال**: ﴿وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

- وبين سبحانه أنه غني عنهم، **فقال**: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ

﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٧-٥٨].

- وأن الخلق كلهم محتاج إليه، **قال تعالى**: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ

وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: ١٥]، **وقال تعالى**: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة

فاطر: ١٥]، **وقال تعالى**: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [سورة آل عمران: ١٨١].

* وبين سبحانه أن طاعة الطائعين لا تزيد في ملكه شيئاً، وأن معصية العاصين

لا تضره شيئاً، قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث الطويل الذي أوله:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي...» قال فيه: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ

وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَثَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي

مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمُ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ

قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً». رواه مسلم عن أبي ذر

✎ فإذا تقرر هذا، فإن الله توعد العباد إن لم يطيعوه ويتبعوا أمره، فانه سيأتي بقوم آخرين يتبعون أوامره ويحبونه ويتبعون مرضاته، وهذه سنة من سنن الله أن من تَوَلَّى استبدل الله غيره أفضل منه وأحسن.

✱ وقد ذكر الله هذا المعنى في غير ما آية في كتابه العزيز، وبَيَّن أن هذا الأمر ليس عليه بعزیز، وأنه لا يعجزه ذلك، فإنه سبحانه على كل شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

١ - قال تعالى: ﴿هَآأَنَٔ هَؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۖ﴾ [سورة محمد: ٣٨].

قال ابن كثير رحمه الله: قال قتادة: قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضعاف، وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه...

ثم قال: والله الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [سورة محمد: ٣٨]، أي: بالذات إليه فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾، أي: عن طاعته وإتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٨]، أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [سورة فاطر: ١٥-١٧].

٣- وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٣٢) إِنَّ

يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ [سورة

النساء: ١٣٢-١٣٣].

قال القرطبي رحمه الله: في الآية تخويف وتنبيه لجميع من كانت له ولاية وإمارة ورياسة فلا يعدل في رعيته، أو كان عالمًا فلا يعمل بعلمه ولا ينصح الناس أن يذهب به ويأتي بغيره، وكان الله على ذلك قديرًا. اهـ.

٤- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: في "مجموع الفتاوى" (٢٧/٤٤٢):

وولاية الأمر أحق الناس بنصر دين الرسول ﷺ وما جاء به من الهدى ودين الحق، وإنكار ما نهى عنه وما نسب إليه بالباطل من الكذب والبدع، إما جهلاً من ناقله وإما عمداً، فإن أصل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأس المعروف هو التوحيد، ورأس المنكر هو الشرك، وقد بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، به فرق الله بين التوحيد والشرك، وبين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الرشاد والغي، وبين المعروف والمنكر فمن أراد أن يأمر بما نهى عنه وينهى عما أمر به ويغير شريعته ودينه إما جهلاً وقلة علم، وإما لغرض وهوى، كان السلطان أحق بمنعه بما أمر الله به ورسوله، وكان هو أحق بإظهار ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق؛ فإن الله سبحانه لا بد أن ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد، فمن كان النصر

على يديه كان له سعادة الدنيا والآخرة، وإلا جعل الله النصر على يد غيره وجازى كل قوم بعملهم، وما ربك بظلام للعبيد، والله سبحانه قد وعد أنه لا يزال هذا الدين ظاهراً، ولا يظهر إلا بالحق، وأنه من نكل عن القيام بهذا الحق استبدل من يقوم بالحق **فقال تعالى:** ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة التوبة: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة المائدة: ٥٤]..

* وقد أرى الله الناس في أنفسهم والآفاق ما علموا به تصديق ما أخبر به تحقيقاً **لقوله:** ﴿سَرِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: ٥٣] والله اعلم. اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: أيضاً كما في "مجموع الفتاوى" (٢٨ / ٢٩١): فلا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود الذي هو العطاء والنجدة التي هي الشجاعة، بل لا يصلح الدين والدنيا إلا بذلك؛ ولهذا كان من لا يقوم بهما سلبه الله الأمر ونقله إلى غيره، كما **قال الله تعالى:** ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ﴾ [سورة التوبة: ٣٨] **وقال:** ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءُ تَدْعُونَ لِئَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا

يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ^٤ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿[سورة محمد: ٣٨] اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" ط/ دار الوفاء (١٧ / ١٧٠): لما نهى الله عن موالة الكفار وبيّن أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام شيئاً، بل سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه فيتولون المؤمنين دون الكفار، ويجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومه لائم، كما قال في أول الأمر: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٨٩].

فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام وأولئك الذين ارتدوا بعد الدخول فيه لا يضرهم الإسلام شيئاً، بل يقيم الله من يؤمن بما جاء به الرسول وينصر دينه إلى قيام الساعة، وأهل اليمن ممن جاء الله بهم لما ارتد من ارتد إذ ذاك وليست الآية مختصة بهم، ولا في الحديث ما يوجب تخصيصهم، بل قد أخبر الله أنه يأتي بغير أهل اليمن، كأبناء فارس لاختص الوعد بهم، وقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) [سورة التوبة: ٣٨-٣٩]، وهذا أيضاً خطاب لكل قرن، وقد أخبر فيه أنه من نكل عن الجهاد المأمور به، عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد، وهذا هو الواقع، وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿هَآئِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا

يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ [سورة محمد: ٣٨] فهذه حال الجبان البخيل يستبدل الله به من ينصر الإسلام وينفق فيه. اهـ.

٥ - **وقال تعالى:** ﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ [سورة المعارج: ٤٠-٤٢].

اختار ابن جرير رحمه الله في أن المراد بذلك: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [سورة المعارج: ٤١]، أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا.

الفوائد:

١ - بذل النفس في سبيل الله وبذل المال كذلك، وأن البخل بنفسه وماله، فإن الله قادر على أن يستبدل غيره ممن يبذل نفسه وماله في سبيل الله.

٢ - عدم المن بأعمالنا فله المنة وحده، **قال الله تعالى:** ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الحجرات: ١٧].

وكان جواب الأنصار عن رسول الله ﷺ حينما عتبوا عليه في عدم إعطائهم من الغنائم: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنَ».

٣ - التواضع لله ﷻ، وترويض النفس وتأديبها ومجاهدتها على الإخلاص لله سبحانه.

٤ - الإيمان بأن الله قدير، وأنه سبحانه غني فلكمال غناه وقدرته، فهو قادر سبحانه على أن يستبدل المكذبين المعرضين بأقوام آخرين، ثم لا يكونوا أمثالهم.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٣٣].

٥ - على العالم أن يبذل علمه للناس، ويحتسب الأجر من الله، ويعمل بهذا العلم، وإلا فإن الله يستبدل به غيره، وكذلك الوالي والأمير عليه أن يعدل في رعيته، ويقيم شرع الله فيهم، ويعدل بينهم وإلا استبدل الله به غيره.

٦- خطورة أمر الإعراض والتولي عن أوامر الله، وأنه سبب الهلاك والاستبدال بالغير، **قال تعالى:** ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٨].

السنة التاسعة

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

✽ سنة من سنن الله في هذه الحياة أن العسر يعقبه يسر، كما أبان الله ذلك ووضحه في كتابه، وسنة رسوله ﷺ:

١ - قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٧].

٢ - وقال تعالى: ﴿يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [سورة يوسف: ٨٧].

٣ - وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة الشورى: ٢٨].

٤ - وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ﴾ [سورة يوسف: ١١٠].

٥ - وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ [سورة الشرح: ٥-٦].

قال ابن كثير رحمه الله: أخبر تعالى أن مع العسر يسرا، ثم أكد هذا الخبر. ومعنى قول (لن يغلب عسر يسرين): أن اليسر معرّف في الحالتين فهو مفرد والعسر منكر فتعدد.

ومما يروى عن السانعي:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا
من راقب الله في الأمور نجا
ومن صدق الله لم ينله أذى
ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال ابن دُرَيْدٍ: أنشد أبو حاتم السجستاني:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرhib
وأوطات المكارة واطمأنت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر في انكشاف الضر وجهها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاق فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

قال ابن الجوزي رحمه الله في "زاد المسير" عند هذه الآية: حُكي عن العتيبي قال: كنت ذات ليلة في البادية بحالة من الغم، فألقي في روعي بيت من الشعر:

أرى الموت لمن أصبح مغموم لـه أروح
فلما جنَّ الليل سمعت هاتفًا يهتف:

ألا يا أيها المرء الذي الهم به يبرح وقد أنشد بيتاً لم يزل في فكره يسرح
إذا اشتد بك العسر ففكر في ألم فعر بين يسرين إذا أبصرته تفرح

قال: فحفظت الأبيات ففرَّج الله غمي. اهـ.

قلت: وجميع الأدلة من الكتاب والسُّنة في موضوع الفرج بعد الشدة أمثلة لهذه السُّنة الإلهية، وإليك بعض الأمثلة:

المثال الأول: نبي الله إبراهيم عليه السلام وقع في شدائد ومحن كثيرة، منها أمر الله تعالى له بذبح ابنه، **قال تعالى:** ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يُبْنِيَ لِي أَرَى فِي

الْمَنَامِ أَتَىٰ أَدْبُحَكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَابَتِ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمُ ﴿١٠٤﴾ فَدَصَقَتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

[سورة الصافات: ٩٩-١٠٧].

فانظر إلى تفريح الله هذه الشدة عن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

ومنها تفريح الله عن زوجته سارة:

قال الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَارَةَ فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ قَالَ أُخْتِي ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَا تُكَذِّبِي حَدِيثِي فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكَ أُخْتِي وَاللَّهِ إِنِّي عَلَى الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكَ فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهَا فَقَامَتْ تَوْضًا وَتُصَلِّي فَقَالَتْ اللَّهُمَّ إِن كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَخَصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ فَعُطِّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ قَالَ الْأَعْرَجُ قَالَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَتْ اللَّهُمَّ إِن يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلْتُهُ فَأَرْسَلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَقَامَتْ تَوْضًا وَتُصَلِّي وَتَقُولُ اللَّهُمَّ إِن كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَخَصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الْكَافِرَ فَعُطِّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ أَبُو سَلَمَةَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ إِن يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلْتُهُ فَأَرْسَلَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ

فَقَالَ وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا أَرْجِعُوهَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَعْطُوهَا أَجْرَ فَرَجَعْتُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَالَتْ أَشَعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الْكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَهُ.

المثال الثاني: نبي الله يعقوب عليه السلام بعد ما حصل له ما حصل من ضياع ولده يوسف وأخيه، وصبره تلك السنوات الطويلة، ومكابدته للآلام، أتاه الفرج من الله برجوع أولاده وبردّ بصره، وقصته معروفة مشهورة كما في سورة يوسف.

المثال الثالث: تفريج الله عن نبيه أيوب عليه السلام بعد الشدة التي حصلت له، **قال تعالى:** ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ أَرْكُضْ بِرَجُلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۝٤٣﴾ [سورة ص: ٤١-٤٣].

المثال الرابع: تفريج الله عن مريم بنت عمران وقد أصابها الهم الشديد، حتى تمت أنها لم تكن خلقت وكانت نسياً منسياً، فجاءها الفرج من الله، فأنطق الله عيسى بن مريم في المهد وجعله آية لبني إسرائيل، واصطفها وطهرها على العالمين.

المثال الخامس: تفريج الله عن نبينا محمد ﷺ بعد ما اشتد إيذاء كفار قريش له ولأصحابه في مكة، ففرّج الله عنه بالهجرة وبإيواء الأنصار وبانتشار دعوة الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجا، ونصره على كفار قريش وعلى المشركين من غيرهم في جميع الغزوات.

المثال السادس: تفريج الله عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، وكانوا قد أيقنوا بالهلاك فجاءهم الفرج من الله بعد ذلك.

والأمثلة على هذه السنّة الإلهية كثيرة جداً ذكرنا بعض الأمثلة منها على سبيل الاختصار، والمقصود هو التدليل على هذه السنّة، وأن الله سبحانه لا يخلف الميعاد.

قال الإمام ابن رجب رحمته الله في "جامع العلوم والحكم" في شرحه لحديث ابن عباس رضي الله عنه «يا غلام أني أعلمك كلمات...»:

ومن لطائف إسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر، أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى حصل للعبد اليأس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلّق قلبه بالله وحده. وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلّب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكلّ عليه، كما **قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [سورة الطلاق: ٣].

ثم قال: وأيضاً فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات؛ فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تُسرّع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه سبحانه عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

الفوائد:

- ١- عدم القنوط من رحمة الله، وعدم اليأس من روح الله.
- ٢- الصبر على المصائب وعلى الأقدار المؤلمة، والصبر على الطاعة، فإن الله يُثيب على هذا الصبر الأجر الكبير، وبعد هذا الصبر يأتي الفرج، قال النبي ﷺ في حديث ابن عباس: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».
- ٣- اليقين والتوكل على الله، وأن الله لا يخلف وعده في التفريج عن عباده المؤمنين.
- ٤- تسلية النفس عند وقوع الأعسار، إذا علمت أن الله لا بد أن يأتي باليسر بعدها.

السُّنَّةُ الْعَاشِرَةُ

تَفْضِيلُ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ

* سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ لِحُكْمٍ عَظِيمَةٍ يَعْلَمُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ.

١ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ

مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "تَفْسِيرِهِ": وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ الَّذِي لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، حَيْثُ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ بِجَمِيعِ وَجُوهِ الْإِكْرَامِ، فَكَرَّمَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْأَوْلِيَاءَ وَالْأَصْفِيَاءَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ﴾ عَلَى الرِّكَابِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَالْمَرَاقِبِ فِي الْبَحْرِ فِي السُّفُنِ وَالْمَرَاقِبِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَنَاحِكِ، فَمَا مِنْ طَيْبٍ تَتَعَلَّقُ بِهِ حَوَائِجُهُمْ إِلَّا وَقَدْ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَيَسَّرَهُ لَهُمْ غَايَةَ التَّيْسِيرِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا، بِمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَنَاقِبِ، وَفَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي لَيْسَتْ لْغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، أَفَلَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ أَوْلَى النِّعَمِ وَدَفْعِ النِّقَمِ، وَلِتُحْجِبَهُمُ النِّعَمُ عَنِ الْمُنْعَمِ، فَيَسْتَغْلَوْا بِهَا عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، بَلْ رُبَّمَا اسْتَعَانُوا بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ. اهـ.

٢- وَفَضَّلَ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ هِدَايَةَ وَأَمَنَ بِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ النَّاسِ عَلَى مَنْ كَفَرَ وَتَمَرَّدَ. **فَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٨]

٣- **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) [سورة القلم: ٣٥-٣٧].

٤- وَفَضَّلَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٥] فَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ مُبْلِغِينَ عَنْهُ لِيُقِيمُوا الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

٥- وَفَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولَهُ عَلَى بَعْضٍ، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

٦- **وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٥]

فَأَفْضَلُهُمُ مُحَمَّدٌ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ. وَبَعْدَهُ بَقِيَّةُ أُولَئِكَ الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَنُوحٌ وَعِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ.

* وَفَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَعْضٍ فِي أُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَالْعِلْمِ وَالرِّزْقِ وَالْقُوَّةِ وَالْمَكَانَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة

الأنعام: ١٦٥].

قال ابن جرير رحمته الله في "تفسيره": أي خالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رَّبَّ هذا على هذا بما بسط لهذا من الرزق، ففضَّله بما أعطاه من المال والغنى على هذا الفقير فيما خَوَّلَه من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيد والقوة على هذا الواهن الضعيف، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا، ليختبركم فيما خولكم من فضله ومنحكم من رزقه، ليعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه والعاصي، ومن المؤدي مما آتاه الحق الذي أمر بأدائه منه والمفرط في أدائه.

٨- وقال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رِبَّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

[سورة الزخرف: ٣٢].

قال ابن جرير رحمته الله في "تفسيره": نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من نشاء رسولاً ومن أردنا صديقاً، ونتخذ من أردنا خليلاً، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات، فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة، بل جعلنا هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا ملكاً، وهذا مملوكاً. ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا﴾ [سورة الزخرف: ٣٢] أي: ليسخر هذا في خدمته إياه، وفي عود هذا على هذا بما في يديه من فضل، فقد جعل الله بعضهم لبعض سبباً في المعاش في الدنيا. اهـ.

٩ - **وقال الله تعالى:** ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ [سورة النساء: ٣٢].

قال البغوي رحمه الله: وقال قتادة والسدي: لما أنزل الله **قوله تعالى:** ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ **للذكر** **مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** ﴿[سورة النساء: ١١]، قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، كما فضلنا عليهن في الميراث، **فقال الله تعالى:** ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ [سورة النساء: ٣٢] من الأجر **﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾** [سورة النساء: ٣٢] معناه: أن الرجال والنساء في الآخرة في الأجر سواء، وذلك أن الحسنة تكون بعشر أمثالها يستوي فيها الرجال والنساء، وأن فضل الرجال على النساء في الدنيا، وقيل معناه: للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد، وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج. اهـ.

قلت: وتفضيل الرجال على النساء مبين في **قوله:** ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالْصَّالِحَاتُ﴾ [سورة النساء: ٣٤].

١٠ - **وقال تعالى:** ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

١١ - **قال تعالى:** ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ﴾ [سورة الزمر: ٩].

١٢- عن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهِذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ» رواه مسلم.

* والأدلة في تفضيل أهل العلم على غيرهم كثيرة جدًا، ليس هذا مكان بسطها، وقد أفردت بالتأليف، والشاهد أن الله فضّل بعض خلقه على بعض فيما آتاهم من العلم، والله الحكمة البالغة، **قال الله تعالى:** ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٧٦].

👉 فعلى الإنسان أن يعتني بنفسه بطلب العلم النافع، وأن يحرص على أن يكون ممن يرفعهم الله بهذا الكتاب، وأن يخلص في طلبه للعلم مبتغيًا في ذلك رضا الله ﷻ، ومحتسبًا رفع الجهل عن نفسه، فإنه إذا توفر لديه هذين الشرطين فقد أفلح. كما قال الإمام أحمد: إن العلم لا يعدله شيء لمن صلحت نيته.

* وقد فضّل الله بعض الناس على بعض كما ذكر عن الأقوام السابقين **قال الله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾ [سورة الفجر: ٦-١١].

وقال تعالى عن طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]، وفضّل الله بعض الناس على بعض في الفصاحة، وقوة البلاغة.

قال الله تعالى عن موسى: ﴿وَإِخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ﴾ [سورة القصص: ٣٤].

✽ والأُمُور التي يتفاضل فيها الناس كثيرةٌ جدًّا، والمقصود معرفة أن هذه سُنَّة من سُنن الله في خلقه، لا تتغير ولا تتبدل، وهذا التفضيل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله الحكمة البالغة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران: ٧٣].

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦].

✽ وكما أنهم مُفاضلون في الدنيا كذلك في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٢١]، فإن الله قد هيأ الجنة لأوليائه وجعلها درجات، وهيأ النار وجعلها دركات، قال الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٣].
وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٣٢].

فنسأل الله أن يجعلنا من أهل الدرجات العالية في الجنة، وأن يُعِيدنا من نار جهنم إنه على كل شيء قدير.

الفوائد:

١- أن من فضله الله بشيء على بعض خلقه فليعلم أنه بمحض فضل الله ومنته عليه، فعليه أن يعرف هذه النعمة ويؤدي شكرها لتدوم، فمن فضله الله بالعلم فعليه أن يشكر الله على ذلك، وأن يعرف قدر هذه النعمة ويؤدي شكرها، ويحافظ عليها مما يخل بها ويخلص الله فيها، ويدعو الناس إلى الله مستفيداً مما علمه الله منها، وإلا يفتخر بها ويماري بها ويتكبر على غيره ممن حرمها، فإنه إن فعل ذلك لعل الله أن يسلبها عنه ويستبدل غيره ممن يقوم بها ويرعاها حق رعايتها، ومن فضله الله على غيره في الرزق فعليه بالحدز أولاً أن لا يكون ذلك استدراجاً له، كما قال النبي ﷺ: «وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ» أخرجه البخاري عن عمرو بن عوف رضي الله عنه. فعليه بعدم الركون إليها، وعليه أن يؤدي ما افترض الله عليه، من زكاة ماله وما حثه الله عليه من الصدقات وإطعام المساكين وصلة أولي القربى، والإنفاق في وجوه الخير من هذا المال.

٢- معرفة هذه السنة تحث الإنسان على التواضع، فإن الذي لديه علم هناك من هو أعلم منه، والذي رزقه الله المال هناك من هو أغني منه، وهكذا الحكمة والقوة والفصاحة، فإن الذي يتواضع لله يزيده الله رفعة.

٣- أن يعلم المفضل أن حاله التي هو عليها من فقر وقلة ذات اليد أن الله اختار له هذا الحال، وهو أرحم به، فلعله لو أعطي من الدنيا شيء لبغى في الأرض **قال الله تعالى:** ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الشورى: ٢٧].

٤- أن من قُضِّلَ عليه غيره في العلم أن لا يحسده على ما أتاه الله من فضله، وأن يسأل الله الجميع من فضله، فإن يد الله مَلَأَى لا يغيضها نفقة، والله خزائن السموات والأرض وهو الذي يَمُنُّ على من يشاء في العلم والحكمة، **قال الله تعالى:** ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٣٢].

٥- أن يعلم الإنسان حكمة الله البالغة في خلقه، بتقدير هذه السنة بينهم ليقوم معاشهم في الحياة الدنيا، وليتخذ بعضهم بعضا سخريا، وأن لا يكون عنده تلوم على القدر، وأن يعلم أن كل ما يجري هو بمشيئة الله تعالى، وله فيه الحكمة البالغة، فيرضى بقضاء الله وقدره، مما يحدث له اطمئناناً وراحةً والسلامة من الأمراض النفسية والأوهام والتهالك على الدنيا، وغيرها من المنغصات الناتجة عن عدم فهم هذه السنة الإلهية العظيمة.

السنة الحادية عشرة

لا يحق المكر السيء إلا بأهله

* **المكر لغة:** هو احتيال في خفيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٠].

واصطلاحاً: هو إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر.

* **ومكر الله ﷻ:** صفة فعل حقيقية على ما يليق بجلاله، ومعناه: مجازاة الماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، ويكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة.

* **والمكر نوعان:** أحدهما مذموم، والآخر محمود.

فأما المحمود: هو أن يتحرى بذلك فعل جميل، قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٤].

والآخر المذموم: هو أن يتحرى به فعل قبيح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [سورة فاطر: ٤٣].

وذكر الذهبي وابن حجر رحمهما الله أن المكر السيئ من الكبائر. اهـ "من نضرة النعيم" [صفة المكر].

وقد بين الله ﷻ في غير ما آية في كتابه العزيز عاقبة المكر، وأنواعه وأكثر الناس تمادياً فيه.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمَكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٣]، أي: عظماءها

ورؤساؤها، وإنما خصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد وأقوي من غيرهم على حمل الناس وإتباعهم في باطلهم.

٢- **قال الله تعالى:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ﴾ (٤٢) ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٣) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۚ﴾ (٤٤) [سورة فاطر: ٤٢-٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر الله عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد إيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [سورة فاطر: ٤٢]، أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره، **كقوله تعالى:** ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٥٦) ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ (١٥٨) [سورة الأنعام: ١٥٦-١٥٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ۚ﴾ (١٦٧) ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦٨) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٩) ﴿فَكْفَرُوا بِهِ ۚ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠) [سورة فاطر: ٤٢-١٧٠].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر: ٤٢] وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [سورة فاطر: ٤٢] أي: ما ازدادوا إلا كفرا إلى كفرهم. ثم بين ذلك بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: ٤٣] أي: استكبروا عن اتباع الآيات ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ [سورة فاطر: ٤٣] أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [سورة فاطر: ٤٣] أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال محمد بن لعب القرضي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر، أو بغى، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [سورة فاطر: ٤٣] ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [سورة يونس: ٢٣] ﴿نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [سورة الفتح: ١٠].

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تتغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) [سورة النحل: ٢٦-٢٧].

قال القرطبي رحمه الله: أتى الله بنيانهم من القواعد هذا تمثيل، والمعنى أهلكوا فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، أي: من حيث ظنوا أنهم في أمان. اهـ.

*** وهالك بعض الأمثلة على أن المكر السيء لا يحق إلا بأهله:**

المثال الأول: قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٢-٥٤].

﴿ وَمَكْرُؤًا ﴾ يعني: كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر، ودبروا في قتل عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأمه، عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله، وتواطؤوا على الفتك به، ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية، وهو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام حتى قتل. اهـ.

المثال الثاني: قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النمل: ٤٨-٥١].

وقال ابن كثير رحمه الله: يخبر الله تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً بأن يُبيّتوه في أهله ليلاً، فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربائه أنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم. اهـ.

فكان عاقبة أمرهم ونتيجة مكرهم أن الله دمّرهم وأهلكهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون.

المثال الثالث: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

قال السعدي رحمه الله: عند تفسير هذه الآية: اذكر أيها الرسول، ما من الله به عليك ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يشبّوه بالحبس ويوثقوه، وإما أن يقتلوه فيستريحوا -بزعمهم- من شره، وإما أن يخرجوه ويجلّوه من ديارهم، فكلُّ أبدى من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل. فيرضى بنو هاشم ثمّ بديته، فلا يقدرّون على مقاومة سائر قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقعوا به إذا قام من فراشه فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذرّ على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطّوه جاءهم آت وقال: خيكم الله، قد خرج محمد وذرّ على رؤوسكم التراب فنفض كل

منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالب. اهـ.

* ثم ينبغي أن يُعلم أن هذه سنة من سنن الله الكونية، التي لا تبدل ولا تتغير، أن المكر السيئ لا يحق إلا بأهله. لكن كيفية ذلك قد لا تكون ظاهرة لكل أحد، وقد يكون العقاب معجلاً، وقد يكون مؤجلاً لوقت يعلمه الله، ولحكمة يريد بها سبحانه. **قال الله تعالى:** ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد: ٣٣-٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [سورة فاطر: ١٠].

قال ابن كثير رحمه الله: والصحيح أن الآية عامة، أي: يدخل فيها المراءون بإعمالهم، والمشركون داخلون فيها بطريق الأولى. ولهذا قال: ﴿هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [سورة فاطر: ١٠] أي: يفسد ويظهر زيفهم عن قريب لأولي الإبصار والنهي، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون

المتفرسون فلا يروج عليهم بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية. اهـ.

قال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٤٢].

قلت: وكم رأينا في هذا الزمن من الأمثلة الحادثة المصدقة لهذه السنة العظيمة، فكم من ماكر بدين الإسلام بور الله مكره، وجعل ما ينفق في ذلك من الأموال حسرة عليه، وكم من ماكر بدعوة أهل السنة رد الله كيده وحق به مكره السيئ، إما بإفساد أهلها بالشبه والشكوك رد الله كيده، وانكشف عواره، وتهاوت شبهه، وإما بالمال وإفساد ضعاف النفوس والمصابين بالهلع على المادة رد الله مكره وفضحه. وكم من ماكر بتشويه سمعة هذه الدعوة النقية الزكية رد الله مكره وفضحه.

وما ذاك إلا تصديقاً لسُنَنِ اللَّهِ الثابتة، والتي تقضي بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله. فله الحمد والمنّة، ونسأله الثبات على الكتاب والسنة حتى نلقاه، إنه على كل شيء قدير.

الفوائد:

١ - معرفة هذه السنة يزيد من إيمان العبد، وحسن ظنه بربه، وأنه هو الذي يدافع عنه، فعلى العبد أن يصدق مع الله تعالى، وأن لا يبالي بمكر الماكرين، فإن الله كافيه وراذ كيد أعدائه.

قال الشاعر:

ستكفى من عدوك كل كيد إذا كاد العدو ولم تكده
٢ - عدم الاستعجال في تأخر عقوبة الماكرين، فإن الله له الحكمة البالغة، وذلك يكون بالصبر على الأذى في سبيل الله، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

٣ - الإيمان بهذه السنة يزيد من طمأنينة القلب، وعدم تمكن الضعف والخور إليه.

السنة الثانية عشرة

الاختلاف

* الاختلاف سنة كونية أرادها سبحانه كوناً لحكم عظيمة يعلمها الله، وقد ذكر الله هذه السنة في غير ما آية في كتابه الكريم.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [سورة هود: ١١٨-١١٩].

قال السقيطي رحمه الله في "دفع إيهام الاضطراب": اختلف العلماء في المشار إليه بقوله: ﴿وَلِذَلِكَ﴾ ف قيل: إلا من رحم ربك، وللرحمة خلقهم، والتحقيق أن المشار إليه هو اختلافهم إلى شقي وسعيد المذكور في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [سورة هود: ١١٨-١١٩]، ولذلك الاختلاف خلقهم فخلق فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩] الآية.

وأخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث ابن مسعود: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيَقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ»، وروى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».

وفي "صحيح مسلم" من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله سُبْحَانَهُ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وفي "الصحيحين" من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مُيسَّرٍ لَمَّا خُلِقَ لَهُ».

👉 وإذا تقرر أن قوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: ١١٩]، معناه: أنه خلقهم لشقاوة بعض وسعادة بعض، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّمُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [سورة التغابن: ٢] فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] ؟

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه: ذكرها السنقيطي رحمته الله: إلى أن قال رحمته الله:
الوجه الثالث: ويظهر لي أنه الحق لدلالة القرآن عليه، أن الإرادة في قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: ١١٩]، إرادة كونية قدرية.

والإرادة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، إرادة شرعية دينية، فبين في قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: ١١٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩] أنه أراد بإرادته الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة، وبين بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده، ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بيّنه **بقوله**: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ٦٤] فعمّم الإرادة الشرعية بقوله: ﴿إِلَّا يُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وبيّن التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص. اهـ.

قال الإمام الساطبي رحمه الله في "الاعتصام" (٢/ ٥٧٧): **قال الله تعالى**: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) **إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** (١١٩) [سورة هود: ١١٨-١١٩]، فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبداً مع أنه لو أراد أن يجعلهم متفقين لكان قادراً على ذلك، لكن سبق العلم القديم أنه إنما خلقهم للاختلاف، وهو قول جماعة من المفسرين في الآية، وأن **قوله**: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: ١١٩] معناه: وللاختلاف خلقهم، وهو مروى عن مالك بن أنس، قال: خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير، ونحوه عن الحسن.

والضمير في: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ عائد على الناس فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما سبق به العلم. وليس المراد هنا الاختلاف في الصور كالحسن والقبح، والطول والقصر، ولا في الألوان كالأحمر والأسود، ولا في أصل الخلقة كالتمام الخلق والناقص الخلق، والأعمى والبصير، والأصم والسميع، ولا في الخلق كالشجاع والجبان، والجواد والبخل، ولا فيما أشبه ذلك من الأوصاف التي هم مختلفون فيها، وإنما المراد اختلاف آخر، وهو الاختلاف الذي بعث الله النبيين ليحكموا فيه بين المختلفين، كما **قال تعالى**: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٣﴾ [سورة البقرة: ٢١٣]، وذلك الاختلاف في الآراء والنحل والأديان، والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة أو الدنيا، هذا هو المراد بالآيات التي ذكر فيها الاختلاف الحاصل بين الخلق. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" (٥٢/٤): وأهل الإثبات من المتكلمين مثل الكلائية والكرامية والأشعرية أكثر اتفاقاً وائتلاًفاً من المعتزلة، فإن في المعتزلة من الاختلافات وتكفير بعضهم بعضاً حتى ليكفر التلميذ أستاذه من جنس ما بين الخوارج.

* وقد ذكر من صنف في فضائح المعتزلة في ذلك ما يطول وصفه، ولست تجد اتفاقاً وائتلاًفاً، إلا بسبب إتباع الآثار من القرآن والحديث، وما يتبع ذلك ولا تجد افتراقاً واختلاًفاً إلا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه. **قال تعالى:** ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود: ١١٨-١١٩]. فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفوا، وأهل الرحمة هم إتباع الأنبياء قولاً وفعلاً وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة، فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك.

- ولهذا لما كانت الفلاسفة أبعد عن إتباع الأنبياء، كانوا أكثر اختلاًفاً، والخوارج والمعتزلة والروافض لما كانوا أيضاً أبعد عن السنة والحديث، كانوا

أعظم افتراقاً في هذه، لاسيما الرافضة فإنه يقال أنهم أعظم الطوائف اختلافاً، وذلك لأنهم أبعد الطوائف عن السنة والجماعة بخلاف المعتزلة فأنهم أقرب إلى ذلك منهم.

ثم قال بعد ذلك: وأيضاً فالمخالفون لأهل الحديث هم مظنة فساد الأعمال، إما عن سوء عقيدة ونفاق، وأما عن مرض في القلب وضعف إيمان، ففيهم من ترك الواجبات واعتداء الحدود، واستخفاف بالحقوق، وقسوة القلب ما هو ظاهر لكل أحد، وعامة شيوخهم يرمون بالعظائم، وإن كان فيهم من هو معروف بزهد أو عبادة، ففي زهد بعض العامة من أهل السنة وعبادته ما هو أرجح مما هو فيه. اهـ.

قلت: وقد يكون هذا الاختلاف الذي ذكره الله اختلاف بين هذه الأمة مع بقية الملل الأخرى، من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها، وقد يكون الاختلاف بين هذه الأمة نفسها وهذا الاختلاف الحاصل في الأمة قد ذكره النبي ﷺ في قوله: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَاِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ».

قال السيخ الطلحاني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" عند هذا الحديث برقم

فائدة: قال السيغ القبلي رحمته الله في "العلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايخ" (٤١٤): حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضاً، بحيث لا يبقى ريبة في حصول معناها.

ثم قال: والإشكال في قوله: «كلها في النار إلا واحدة»، ومن المعلوم أنهم خير الأمم وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، حسبما صرحت به الأحاديث فكيف يتمشى هذا؟

فبعض الناس تكلم في ضعف هذه الجملة فقال: هي زيادة غير ثابتة، وبعضهم تأول الكلام.

قال: ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة الناجية ألا يقع منها أدنى اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة، إنما الكلام في خلاف تصوير صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها، وإذا حققت ذلك فهذه البدع الواقعة في مهمات المسائل وفيما يترتب عليه عظام المفساد لا تكاد تنحصر، ولكنها لم تخص معيناً من هذه الفرق التي قد تحزبت، والتام بعضها إلى قوم، وخالف آخرون بحسب مسائل عديدة.

ثم أجاب عن الإشكال بما خلاصته: أن الناس عامة وخاصة، فالعامة آخرهم كأولهم كالنساء والعبيد والفلاحين والسوقة ونحوهم، ممن ليس من أمر الخاصة في شيء، فلا شك في براءة آخرهم من الابتداع، كبراءة أولهم، وأما الخاصة فمنهم مبتدع اخترع البدعة وجعلها نصب عينيه وبلغ في تقويتها كل مبلغ، وجعلها أصلاً يُرد إليه صريح الكتاب والسنة، ثم تبعه أقوام من نمطه في

الفقه والتعصب، وربما جددوا بدعته وفرعوا عليها وحملوه ما لم يتحملة، ولكنه إمامهم المقدم، وهؤلاء هم المبتدعة حقاً، وهو شيء كبير ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٠]، كنفي حكمة الله تعالى ونفي أقدره المكلف، وكونه يكلف ما لا يطاق، ويفعل سائر القبائح ولا تقبح منه وأخواتهن، ومنها ما هو دون ذلك وحقائقها جميعاً عند الله تعالى، ولا ندري بأيها يصير صاحبها من إحدى الثلاث والسبعين فرقة.

ومن الناس من تبع هؤلاء وناصرهم وقوى سوادهم بالتدريس والتصنيف، ولكنه عند نفسه راجع إلى الحق وقد دسَّ في تلك الأبحاث نقوضها في مواضع لكن على وجه خفي، ولعله تخيل مصلحة دنيئة أو عظم عليه انحطاط نفسه، وإيذاؤهم له في عرضه، وربما بلغت الأذية إلى نفسه. وعلى الجملة فالرجل قد عرف الحق من الباطل وتخطب في تصرفاته، وحسابه على الله سبحانه، إما أن يحشره مع من أحب بظاهر حاله، أو يقبل عذره.

وما تكاد تجد أحداً من هؤلاء النظار إلا قد فعل ذلك، لكن شرهم والله كثير، فلربما لم يقع خبرهم بمكان، وذلك لأنه لا يفطن لتلك اللمحة الخفية التي دسوها إلا الأذكياء والمحيطون بالبحث، وقد أغناهم الله بعلمهم عن تلك اللمحة، وليس بكبير فائدة أن يعلموا أن الرجل كان يعلم الحق ويخفيه والله المستعان. اهـ.

* ومن الناس من ليس من أهل التحقيق ولا هيئ للهجوم على الحقائق، وقد تدرب في كلام الناس وعرف أوائل الأبحاث وحفظ كثيراً من غثاء ما حصلوه، لكن أرواح الأبحاث بينه وبينها حائل.

وقد يكون ذلك لقصور الهمة والاكتفاء والرضي عن السلف، لوقعهم في النفوس، وهؤلاء هم الأكثر عدداً، والأرذلون قدرًا، فإنهم لم يحفظوا بخصيصة الخاصة ولا أدركوا سلامة العامة.

فالقسم الأول: من الخاصة مبتدع قطعاً. **والثاني:** ظاهره الابتداع. **والثالث:** له حكم الابتداع. **ومن الخاصة قسم رابع:** ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين، أقبلوا على الكتاب والسنة وساروا بسيرها، وسكتوا عما سكتا عنه، وأقدموا وأحجموا بهما وتركوا تكلف ما لا يعينهم، تهمهم السلامة وحياة السنة، أثر عندهم من حياة نفوسهم وقرة ما عين أحدهم تلاوة كتاب الله وفهم معانيه على السليقة العربية، والتفسيرات المروية، ومعرفة ثبوت حديث نبوي لفظاً أو حكماً. فهؤلاء هم أهل السنة حقاً وهم الفرقة الناجية وإليهم العامة بأسرهم، ومن شاء ربك من أقسام الخاصة الثلاثة المذكورين بحسب علمه بقدر بدعتهم ونياتهم.

✍ إذا حققت ما ذكرنا لك لم يلزمك السؤال المحذور، وهو الهلاك على معظم الأمة، لأن الأكثر عدداً، هم العامة قديماً وحديثاً، وكذلك الخاصة في العصور المتقدمة، ولعل القسمين الواسطين.

* وكذا من خفت بدعته من الأول تنقذهم رحمة الله من النظام في سلك الابتداع بسبب المجازاة الأخروية ورحمة ربك أوسع لكل مسلم، لكننا تكلمنا على مقتضى الحديث ومصادقه، وأن أفراد الفرق المبتدعة، وإن كثرت الفرق فلعله لا يكون مجموع أفرادهم جزءاً من ألف جزء من سائر المسلمين. فتأمل هذا تسلم من اعتقاد مناقضة الحديث لأحاديث فضائل الأمة المرحومة. اهـ.

قال الشيخ محيى بن علي المصوري حفظه الله في كتابه «المنّة الإلهية

شرح العقيدة السفارينية» عند قول الناظم:

ألم تر اختلاف أصحاب النظر فيه وحسن ما نجاه ذو الأثر
فأنهم قد اقتدوا بالمصطفى وصحبه فاقنع بهذا وكفى
قوله: (ألم تر اختلاف أصحاب النظر!) وهذا استفهام تعجب، وهذه سنة

الله تعالى الكونية في كل من أعرض عن الكتاب والسنة، وحكم عقله السقيم في
شرع الله، تعالى عما يقوله الظالمون علواً كبيراً، **قال الله تعالى:** ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ
غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢]، فلهذا ترى أهل النظر وهم
أهل الكلام تراهم أبعد الناس عن الحق في الصفات، ولم يصل إلا إلى التيه
والضلال.

فهذا الشهرستاني الذي كان من المتكلمين من أهل النظر الذين يقدمون
النظر والعقل على الدليل، وانتهى به علم الكلام إلى الحيرة **وما قاله:**

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم
فرد عليه الإمام الصنعاني رحمه الله قائلا:

لعلك أهملت الطواف بمعهد الر سول ومن والاه من كل عالم
فما حار من يهدي بهدي محمد ولست تراه قارعا سن نادم
والدمعري تجرية مماثلة بقول عنها:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسمنا وغاية ديانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فكان سعيهم ضلالاً، وعلمهم بلا فائدة ترتجى، ولا علم يقتضى. اهـ.
قلت: وقد بين الله ﷻ أن من حكمته أنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن يكون هذا الاختلاف الحاصل، وأن يوجد الخير والشر، وبين هذا في آيات كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ [سورة يونس: ٩٩-١٠٠]. **وقال تعالى:** ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِصَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة الرعد: ٣١) **وقال تعالى:** ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٢]، **وقال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (سورة يونس: ١٩-٢٠)، إلى غير ذلك من الآيات.

* ومما ينبغي أن يعلم أن الإيمان بهذه السنة الكونية لا يعني أن يلج الإنسان في أسباب الاختلاف، وأن يتساهل فيها بحجة أن هذا الشيء قد كتبه الله، فإن الله أراد كونه، ولم يرد شرعاً.

فقد حذرنا سبحانه من الاختلاف ومن الوقوع في أسبابه وأسبابه كثيرة

جداً:

أولاً: منها عدم الاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، وعدم التحاكم إليهما عند الاختلاف.

ثانياً: ومنها ترك سبيل السلف الصالح.

ثالثاً: ومنها إتباع الهوى.

رابعاً: ومنها الانهماك في المطامع الدنيوية.

خامساً: ومنها تقليد أعداء الإسلام.

سادساً: ومنها عدم الرجوع إلى أهل العلم العاملين بكتاب الله وسنة رسوله. والأسباب كثيرة جداً، إنما المقصود أن الله نهانا عن الاختلاف.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

وقال الله تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٢) [سورة الروم: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩].

وقال النبي ﷺ مخبراً عن كثرة الاختلاف في آخر الزمان: «وإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُوا عَلَيْهَا بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ولا خلاص لأمة محمد ﷺ من الخلاف إلا الرجوع إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ على فهم سلف هذه الأمة. نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين جميعاً، وأن يردهم إلى دينه الحق رداً جميلاً، وأن يدفع عنهم أسباب الاختلاف إنه سميع قريب والحمد لله رب العالمين.

الفوائد:

١- أن لا يستغرب الإنسان من كثرة الاختلاف في هذا الزمان؛ لأن هذا الشيء قد أخبر عنه النبي ﷺ، ولكنه دلنا أيضًا على المخرج من هذا الاختلاف، وهو التمسك بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وترك الابتداع في دين الله.

٢- اللجوء إلى الله سبحانه بأن يهدينا إلى ما اختلف فيه الناس، كما كان من دعائه ﷺ: «اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مُستقيمٍ» أخرجه مسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي.

٣- الفهم الصحيح لهذه السنة يبين حكمة الله في خلقه، وفيما يقدره في الخير والشر، وهو أحكم الحاكمين، وسواء ظهرت لنا هذه الحكمة أم لم تظهر.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه "شفاء العليل" في المقدمة:

فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، وقد سلك جماهير العقلاء في هذا الباب في كل واد، واخذوا في كل طريق، وتولَّجوا كل مضيق، وركبوا كل صعب وذلول، وقصدوا الوصول إلى معرفته، والوقوف على حقيقته وتكلمت فيه الأمم قديما وحديثا، وساروا للوصول إلى مغزاه سيرا حثيثا، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها، وصنف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن ويطلب الوصول فيه إلى حقيقة العرفان، فتراه إما مترددا فيه مع نفسه أو مناظرا لبني جنسه، وكل قد اختار لنفسه قولاً لا يعتقد الصواب في سواه ولا

يرتضي إلا إياه، وكلهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود وباب الهدى في وجهه مسدود، وتحسي علمًا غير طائل، وارتوى من ماء آجن. قد طاف على أبواب الأفكار ففاز بأخس المطالب والآراء، وفرح بما عنده من العلم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وقدم آراء من أحسن الظن به على الوحي المنزل المشروع والنص المرفوع حيران يأتّم بكل حيران، يحسب كل شراب ماء فهو طول عمره ظمآن، وينادي إلى الصواب من مكان بعيد، اقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد.

٤- على المؤمن أن يتعد عن ما يؤدي إلى الاختلاف المذموم ويكون ذلك في حدود الشريعة، بحيث لا يسكت عن منكر يستطيع تغييره ولا يتكاسل عن أمر بمعروف يستطيع الأمر به، ولا يسكت عن مبطل أو صاحب هوى يستطيع تبين حاله للناس، وأن هذا الفعل هو من أسباب الاجتماع على الطريق القويم، لا كما يدعيه أهل الأهواء أن الجرح والتعديل يؤدي إلى الفرقة بين الناس. فما كثرت الأهواء وتشعبت إلا عندما قل القائمون بهذا الواجب العظيم، وهو جرح من يستحق الجرح، وتعديل من يستحق التعديل بأحكامه وضوابطه التي يعرفها العلماء الراسخون في العلم.

السُّنَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا

* هذه سنة من سنن الله التي لا تتغير ولا تبدل في أن الله يحق الحق ويبطل الباطل، وأن الله يدمغ الباطل بالحق فيزهق ويضمحل، وقد بين الله هذه السنة في غير ما آية في كتابه الكريم.

قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثٍّ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٧].

قال ابن كثير رحمه الله: اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفناءه، **فقال تعالى:** ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا﴾ [سورة الرعد: ١٧] فسالت أودية بقدرها، أي: أخذ كل وادٍ بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً. ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ [سورة الرعد: ١٧]، أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه هذا مثل.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ [سورة الرعد: ١٧]، هذا هو المثال الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء، أي: ليجعله حلية أو نحاساً أو حديداً، فيجعل متاعاً فإنه يعلوه زبد منه. كما يعلو ذلك زبد منه.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٧] أي: إذا اجتمع لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، أي: يذهب ويضمحل. ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [سورة الرعد: ١٧]، أي: لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٧] اهـ.

قال العلامة السعدي رحمه الله: شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماء كثيراً كقلب كبير يسع علماً كثيراً، وواد صغير يأخذ ماءً قليلاً، كقلب صغير يسع علماً قليلاً.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال طافية فوق الماء مكدره له، حتى تذهب وتضمحل ويبقى

ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة. كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب صافياً خالصاً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه. فالباطل يذهب ويمحقه الحق: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١]، **وقال الله تعالى:** ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١].

قال السعدي رحمه الله: الحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يعلن قد: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾، الذي لا يقوم له شيء. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [سورة الإسراء: ٨١]، أي: اضمحل وتلاشى ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١]، أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، ولا يبقى له حراك؛ ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأماكن الخالية من العلم بآيات الله وبياناته. اهـ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: كما في "مجموع الفتاوى" (١٣/٨٦): المبطل ليس قوله ثابتاً في قلبه، ولا هو ثابت فيه وليستقر، كما **قال تعالى:** ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَدَبٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد: ١٧]، فإنه وإن اعتقده مدة، فإنه عند الحقيقة يخونه، كالذي يشرك بالله. فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله، وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقد الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. اهـ.

قال ابن كثير رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١]، تهديد ووعيد لكفار قريش بأنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله من الهدى والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لأثبت له من الحق ولا بقاء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨].

وقال البخاري: حدثنا الحُمَيْدِيُّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةٍ نُصِبَ فَجَعَلْ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ». **وقال الله تعالى:** ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة

الأنبياء: ١٨].

قال السعدي رحمه الله: يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل أو جودل به فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل بطلانه: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨] أي: مضمحل، فإن هذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو إبطال حق إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه. فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك. اهـ.

قلت: ومن تلك الأمثلة لهذه السنة الإلهية العظيمة:

١ - قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨]، فقد جاء إبراهيم عليه السلام بالحجج الدامغة التي أزهدت باطل ذلك النمرود حتى بهت وأحجم عن الجواب، لقوة الحق الذي جعله الله على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام.

٢ - وقال الله تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [سورة يونس: ٨٠-٨١]، فقد جعل الله عصا موسى آية عظيمة التقت كل ما خيل للناس من حبالهم وعصيتهم، فأزهد الله باطلهم وأظهر الحق. ومن ثم عرف السحرة أن هذا ليس بالسحر فأمّنوا جميعاً.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: ٢]، فقد جاء الله بالإسلام وبعث نبيه محمداً عليه السلام، ومحا الله به جاهلية جهلاء كان عليها العرب قبل الإسلام، فأزهد الله ذلك الباطل من الشرك بالله وعبادة الأصنام، والضلال المبين الذي كانوا عليه، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

ودخل النبي عليه السلام مكة وكسر الأصنام التي حول الكعبة، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١].

فإذا تقرر هذا، عُلِمَ أيضًا أن الباطل قد يكون له صولة في بعض الأزمان، وبعض الأماكن نتيجة لغياب الحق وأهله، ولحكم عظيمة يعلمها سبحانه، ولكن مصيره إلى الاضمحلال والتلاشي، فإنه وإن طال فإن الله حكم بزواله وإزهاقه، ومن أصدق من الله قيلاً.

قال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" في [الدروس والحكم من غزوة أحد] في تفسير **قول الله تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾** [سورة آل عمران: ١٥٤]: فسّر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وقد فسّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله، ويظهره على الدين كله.

وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه في سورة الفتح، حيث **يقول: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** [سورة الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظنُّ السوء وظنُّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنُّ غير الحق، لأنه ظنُّ غير ما يليق بأسمائه الحسنی وصفاته العليا، وذاته المبراة من كل عيب، وسوء بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرد بالألوهية والربوبية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلف، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظنَّ بأنه لا ينصر رسوله، ولأيتم أمره، وليؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم
ويظفرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشُّرْكَ
على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق
اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء. اهـ.

الفوائد:

- ١- الثبات على الحق، فإن الله هو الحق، وقد وعد أهل الحق بالنصر والتمكين والخلود في جنات النعيم.
- ٢- البعد عن الباطل وأهل الباطل وإن صالوا وجالوا، فإن مآل أمرهم إلى الزوال والاضمحلال، وعد الله حقاً أنه لا يخلف الميعاد.
- ٣- على المؤمن أن لا يدب اليأس إليه، إذا رأى صولة أهل الباطل، فإن الله لا بد سيذهبه ويزهقه.
- ٤- الصبر في تعلم العلم النافع والعمل به والدعوة إليه، فإن الباطل لا يروج إلا في الأزمان والأماكن الخالية من العلم بآيات الله وبيناته، كما تقدم في كلام السعدي رحمه الله. اهـ.

السُّنَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ

الْتَمَكِينُ فِي الْأَرْضِ لِلصَّالِحِينَ

* وعد الله ﷻ عباده الصالحين بالتمكين في الأرض، وبين ذلك في كتابه العزيز وبين الشروط التي يستحقون بها التمكين والنصر، والأسباب التي تحول دون ذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٥٥].

قال ابن كثير رحمه الله: هذا وعد من الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي الأئمة على الناس والولاء عليهم، وبه تصلح البلاد وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم. وقد فعل ﷺ ذلك وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومنبع أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة والذي تملك الحبشة بعد أصحابه ﷺ.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار ما عند الله من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى عند موته، وأخذ جزيرة العرب ومهداها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رحمه الله.

ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها وجيشاً آخر صحبة أبي عبيده عليه السلام ومن معه من الأمراء إلى أهل الشام، وثالثاً صحبه عمرو بن العاص عليه السلام إلى مصر ففتح الله للجيش السامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقها من بلاد حور وما والاها وتوفاه الله عز وجل.

ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً لم يدور الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان وتقهر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى القسطنطينية، وأنفق أموالها في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله عليه من ربه أتمُّ سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى المشارق والمغارب، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس، وقبرص وبلاد القيروان، وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية.

وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليه السلام، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن.

ولهذا ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا». فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

* فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.
ثم ذكر ابن كثير ما رواه مسلم: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَزَالُ أَمُرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا». ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَلَى فَسَأَلْتُ أَبِي مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

قال: وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثنا عشر خليفة عادلاً، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فأنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون.

وقد وقعت بهم البشارة في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً أو متفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم كانت بعدهم فترة بينهم، ثم وجد منهم من شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى، ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً..

الى أن قال: فالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ، وأطوعهم لله تعالى كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق

والمغرب، وأيدهم الله تأييدًا عظيمًا، وتحكّموا في سائر البلاد والعباد. ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم.

ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي رواية: «حتى يقاتلون الدجال». وفي رواية: «حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون»، وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها. اهـ.

وقال العلامة السعدي رحمه الله: عند تفسير هذه الآية: هذا من وعوده الصادقة التي شوهدها تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دين الإسلام الذي ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها، ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم.

إلى أن قال رحمه الله: ولا زال الأمر إلى قيام الساعة مهما قام بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله به، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١٠٥] **إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ** [١٠٦] [سورة

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨]، **وقوله:** ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ [سورة غافر: ٥١-٥٢]، **وقوله:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٥٥].

* وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، فهو كائن لا محالة، وكما هو معلوم من سنن الله الجارية ربط الأشياء بمسبباتها، **فقد جعل الله أسباباً للتمكين في الأرض ومن أهمها:**

١- إقامة توحيد الله في الأرض وإخلاص العبادة له سبحانه.

٢- الإيمان والعمل الصالح.

ويدل على هذين السببين **قول الله تعالى:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [سورة النور: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥].

٣- العدل، وذلك لأن الظالم لا يكون ممكنًا حقيقةً، ولو حصل له بعض التمكن النسبي. **قال الله تعالى** عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَهُهُ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

فالظالم لا يصلح أن يكون خليفةً، ولا حاكمًا، ولا مفتيًا، ولا شاهدًا، ولا راويًا، كما روى ذلك ابن كثير عن ابن خويز منادًا المالكى. **قال شيخ الإسلام رحمه الله** في "مجموع الفتاوى" (٢٨/٦٣): إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة. ولهذا يروى: أن الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة. اهـ.

٤- الاستعانة بالله والصبر على الأذى، **قال الله تعالى**: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨].

قال الحسن البصري رحمه الله: لو أن الناس إذا أُبتلوا من قبل سلطانهم بشيء صبروا، ودعوا الله لم يلبثوا أن يرفع الله ذلك عنهم، ولكنهم يفرعون إلى السيف فيوكلون إليه.

ونحن في هذا العصر كم وجدنا من يفرع إلى سيفه ومدفعه في مواجهة حاكم ظالم مستبد، ولكنهم لم يرجعوا إلا بالدمار والفتن وتسلط الأعداء، بل جروا على أنفسهم وعلى غيرهم الثبور والأذى، ولو أنهم صبروا واتقوا وتوكلوا على الله واستعانوا به على ما هم فيه من الضعف لفرج الله عنهم.

ويستدل على ذلك أيضًا بالأحاديث الكثيرة الدالة على الأمر بالصبر، وعدم الاستعجال، من ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي عبد الله خباب بن الارت رضي الله عنه، قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنْكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ». وفي رواية: «وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرَكِينَ شِدَّةً».

قال العلامة السعدي رحمته الله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨] : أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين فإنهم وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم والعاقبة الحميدة لهم على قومهم، وهذه وظيفة العبد أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر ويستعين بالله، ويتنظر الفرج. اهـ.

ولهذا كانت العاقبة لهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٢٧)

أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾
[سورة الأعراف: ١٣٧-١٣٨]، أي بسبب صبرهم وتوكلهم على الله.

٥- التقوى والخوف من الله: **قال الله تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ١٣-١٤]. **وقول الله تعالى:** ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾
[سورة هود: ٤٩].

٦- الاستعداد وتجهيز القوة، **قال تعالى:** ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠] واختيار القيادة المؤهلة من قوة وسداد رأي وحكمة ومشورة، **قال الله تعالى:** ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧].

٧- عدم التنازع والاختلاف: **قال تعالى:** ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

هذا وقد ظن أقوام أن التمكين في الأرض يكون بالدخول في البرلمانات، والانتخابات ومجاعة أعداء الإسلام، والتشبه بهم، فتراهم يقضون أعمارهم في التجهيز للانتخابات، وخوض غمارها واعتناق الديمقراطية بما فيها من التعددية الحزبية وحرية الأديان، وغير ذلك من البوائق.

فلا هم للكفار هزموا ولا للإسلام نصروا، وظنت طائفة أخرى أن التمكين في الأرض يكون بالثورات والانقلابات ومقاتلة الحكام، فاستباحوا الدماء والإعراض وفتحوا على المسلمين باب فتنة وشر عظيم، والله المستعان.

الفوائد:

- ١ - الثقة بالله سبحانه وبوعده الحق، في أن الأرض يورثها عباده الصالحون.
- ٢ - أن الصبر على الأذى والاستعانة بالله واللجوء إليه، من أسباب التمكين في الأرض، ففيه الرد على الثوريين والانقلابيين الذين يستعجلون الأمور.
- ٣ - إذا أبطأ التمكين فهذا يكون راجعاً لعدم توفر أسبابه التي شرعها الله، أو قد يكون ذلك لربط الناس برهيم واللجوء إليه.
- ولتعلم الأمة أن القوة المادية لا تنفع بدون معونة من الله، أو قد يكون الباطل لم يظهر زيفه للناس بعد، فيؤجل الله التمكين من أجل معرفة الناس لزيف هذا الباطل.
- ٤ - قد يكون التمكين جزئياً، كما قال النبي ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ».
- ٥ - وقد يكون التمكين علي سبيل الأفراد كما كان شأن يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [سورة يوسف: ٥٦]، وقال تعالى عن ملك مصر ليوسف: ﴿قَالَ إِنَّكَ آلِيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٤].
- ٦ - إعداد العدة، وأهمها العدة المعنوية من الإيمان بالله، وإقامة توحيده والصبر والعمل الصالح.
- ٧ - إن وجد ظالم ممكن، فهذا يكون استدراجاً له وفتنة لغيره.

السُّنَّةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ

حَقٌّ عَلَى اللَّهِ إِلَّا يَرْتَفِعَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا شَيْءٌ إِلَّا وَضَعَهُ

* هذه السنة بينها النبي ﷺ كما جاء عن أنس رضي الله عنه، قَالَ: كَانَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعُضْبَاءُ لَا تُسَبِّقُ أَوْ لَا تَكَادُ تُسَبِّقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ، فَقَالَ: «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ» رواه البخاري (٢٨٧١).

قال الحافظ ابن مبرر رحمه الله في "فتح الباري": فيه إشارة الحث على عدم الترفع والحث على التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة، قال ابن بطال رحمه الله: فيه هوان الدنيا على الله، والتنبية على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة، فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه، وقال الطبري رحمه الله: في التواضع مصلحة الدين والدنيا، فإن الناس لو استعملوه في الدنيا زالت بينهم الشحناء، واستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة. اهـ.

قلت: وفيه أيضاً حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه.

* وقد قصَّ الله علينا في كتابه ما حدث لقارون، **فقال تعالى:** ﴿إِنْ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۚ وَأَحْسِنْ ۚ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ

الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ
لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنَاهُ لَدْوَ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ
ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ
وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ ۖ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ
بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ [سورة القصص: ٧٦-٨٤].

قال السعدي رحمه الله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [سورة القصص: ٧٩] أي:
بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد
وتجمل بأعظم ما يمكنه. وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة جمعت زينة
الدنيا وزهرتها وبهجتها ونضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون وملأت
بزته القلوب واختلبت زينته النفوس.

الى أن قال: فلما انتهت بقارون حاله البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده،
وكثر بها إعجابه، بَغَتْه العذاب: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [سورة القصص: ٨١]،
جزاء من جنس عمله. فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو
وما اغتر به من داره وأثائه ومتاعه.

فائدة: في قصة قارون عدة سنن كونية بالإضافة إلى ما سبق منها:

- ١ - إهلاك الأمم المكذبة.
 - ٢ - الجزاء من جنس العمل.
 - ٣ - كذلك قصَّ الله علينا خبر فرعون وأنه علا في الأرض، واستضعف أهلها، وذبح أبناءهم، واستحيا نساءهم، وتناول على مقام الربوبية والألوهية، **فقال:**
﴿الَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [سورة الزخرف: ٥١] **وقال:** ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: ٣٨]، وكان حقا على الله أن يذله ويهلكه، فدمَّر الله ملكه وأغرقه في البحر وجعله آية للناس، **قال الله تعالى:**
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [سورة يونس: ٩٢].
- وعلى أن نعلم أن سنة الله هذه ماضية في كل شيء من أمور الدنيا، حتى ولو كانت فكرة خبيثة كالاشتراكية والبعثية والناصرية والعلمانية، فإن كل واحدة من هذه الأفكار ترتفع في بداية أمرها، ويحتشد لها من الأنصار الكثير ثم تسير وتتسبب، فإذا ظن أهلها أنهم قد سادوا العالم أتاها أمر الله فسقطت وذلت، وجعلها الله أحاديث ومزقها كل ممزق.
- فهذه الشيوعية سادت العالم فترة من الزمن، ثم وضعها الله وأذلها في عقر دارها، وهكذا البعثية والناصرية، والآن ها هي أمريكا تسيطر على العالم وتحارب الإسلام وأهله، في كل بلد وإقليم وتسير متبخترة متكبرة، ولكن علينا أن نؤمن بأن سنة الله فيها قائمة، سواء شهدنا ذلك بأنفسنا أم يشهدها من بعدنا بان الله سيذلها ويضعها، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

السُّنَّةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ

ما أسْرَأُ أَحَدَ سَرِيرَةٍ إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفْحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ

* بَيَّنَّ اللَّهُ هَذِهِ السُّنَّةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١٨].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ عِلَاقَةً سَبَبِيَّةً بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَاللِّسَانِ وَالْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ، فَإِذَا مَا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ تَشَابَهَتْ الْأَقْوَالُ، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [سورة الذاريات: ٥٢-٥٣]، أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ كَلَّا فَهَمْ لَمْ يَلْقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَكِنْ سَبَبُ التَّشَابُهِ فِي الْأَقْوَالِ هُوَ الطَّغْيَانُ الَّذِي فِي الْقُلُوبِ، وَبِسَبَبِ هَذَا التَّلَازُمِ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ اللَّسَانِيَّةِ، كَانَ مِنَ الْمَتَعَذِّرِ عَلَى الْمُنَافِقِ أَنْ يَخْفِيَ نِفَاقَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٠].

بَلْ إِنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لِيَدُلَّنَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ سُنَّةٌ عَامَةٌ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٦].

في هذه الآية دليل على أن هنالك تلازماً بين الإرادة والعمل، فمن ادعى أنه يريد عملاً معيناً وكان قادراً على أن يأتي به أو بشيء منه ثم لم يفعل ذلك، علمنا أنه كاذب في دعواه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" (١٤ / ١١٠): فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن قلوبهم بل أضمرت الكفر **قال تعالى**: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الفتح: ١١]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [سورة البقرة: ١٠]، **وقال**: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة المائدة: ٤١]، فالمنافق لابد أن يظهر في قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. **وقد قال تعالى** عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٠] **ثم قال**: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سورة محمد: ٣٠] وهو جواب قسم محذوف، أي: والله لتعرفنهم في لحن القول فمعرفة المنافق في لحن القول لابد منها وإما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة. اهـ.

وقال رحمه الله أيضاً كما في "مجموع الفتاوى" (١٦ / ٦٨): **وقوله**: ﴿سَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [سورة القلم: ١٦]: فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً. فإن الله جعل للصالحين سيما وجعل للفاجرين سيما، **قال تعالى**: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَمَرِ السُّجُودِ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، **وقال**: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٠] الآية، فجعل الإرادة والتعريف بالسيما

الذي يدرك بالبصر معلقا على المشيئة وأقسم على التعريف في لحن القول وهو الصوت الذي يدرك بالسمع.

فدل على أن المنافقين لا بد أن يعرفوا في أصواتهم وكلامهم الذي يظهر فيه لحن قولهم وهذا ظاهر بين لمن تأمله في الناس من أهل الفراسة في الأقوال وغيرها مما يظهر فيها من النواقض والفحش وغير ذلك.

وأما ظهور ما في قلوبهم على وجوههم فقد يكون وقد لا يكون ودل على أن ظهور ما في باطن الإنسان على فلتات لسانه أقوى من ظهوره على صفحات وجهه؛ لأن اللسان ترجمان القلب فإظهاره لما أكنه أوكد؛ ولأن دلالة اللسان قالية ودلالة الوجه حالية. والقول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال؛ ولهذا فضل من فضل كابن قتيبة وغيره السمع على البصر.

والتحقيق: أن السمع أوسع والبصر أخص وأرفع وإن كان إدراك السمع أكثر فإدراك البصر أكمل؛ ولهذا أقسم أنه لا بد أن يدركهم بسمعه وأما إدراكه إياهم بالبصر بسيماهم فقد يكون وقد لا يكون.

فأخبر سبحانه أنه لا بد أن يسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومه وهو أنفه الذي هو عضوه البارز الذي يسبق البصر إليه عند مشاهدته؛ لتكون السيمة ظاهرة من أول ما يرى وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم فإن لهم سيما من شر يعرفون بها وكذلك الفسقة وأهل الريب. اهـ.

- وفي "الأداب الشرعية" لابن مفلح (١/١٥١): **قال ابن عقيل** في "الفنون": للإيمان روائح ولوائح لا تخفى على اطلاع مكلف بالتلميح

للمتفرس، وقلّ أن يضمّر مضمر شيئاً، إلا وظهر مع الزمان على فلتات لسانه وصفحات وجهه. اهـ.

قلت: فإذا تقرر هذا وجب على الإنسان أن يصلح سريره ونيته، وأن يجاهد نفسه على ذلك، وليعلم أن الله يعلم السر وأخفي، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنه سبحانه سيخرج يوم القيامة كل ما كان الناس يكتُمونه: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢].

👉 وكم رأينا من انتسب زوراً وبهتاناً إلى أهل السنة، وأراد أن يبث سمومه وأفكاره الهدامة بالتلبيس والتدليس، أبى الله إلا أن يظهر ما يضمّر على فلتات لسانه، من أمثال طارق السويدان الذي أراد أن يدس أفكار الرافضة والتقارب بين أهل السنة والشيعة، وأنه لا بأس أن تسب الصحابة ولكن في بيتك بدون تشهير على الملاء، ففضحه الله وبيّن العلماء حاله.

الفوائد:

- ١ - الإخلاص وإصلاح القلب، والصدق مع الله.
- ٢ - مراقبة الله في السر والعلن واستشعار ذلك.
- قال النبي ﷺ: «الإحسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».
- ٣ - الرجوع إلى أهل العلم، وعدم الافتتات عليهم بما حباهم الله وفضلهم، فهم أعراف الناس بلحن القول، وعلامات أهل النفاق وأهل الشك والريب.
- ٤ - سؤال الله سبحانه بتسديد اللسان وهداية القلب، كما جاء في حديث ابن عباس ؓ الذي رواه أبو داود.
- وصححه الشيخ مقبل رحمه الله في «الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» (٢/٤٧٦): قال: كان النبي ﷺ يدعو: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ هُدَايَ إِلَيَّ وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا لَكَ ذَاكِرًا لَكَ رَاهِبًا لَكَ مِطْوَعًا إِلَيْكَ مُحِبًّا أَوْ مُبِيبًا رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ حَوْبَتِي وَأَجِبْ دَعْوَتِي وَثَبِّتْ حُجَّتِي وَاهْدِ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».
- ٥ - على من أضر شرًا ولم يظهر الله شره، أن يبادر إلى التوبة النصوح، وإصلاح سريره: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢]، فإن لم يفعل يوشك الله أن يفضحه، ولعل تأخيره يكون استدراجًا.
- ٦ - سعة علم الله واطلاعه على ما تخفى السرائر، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ [سورة غافر: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ

الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦].

السنة السابعة عشرة

الظلم سبب للهلاك

* هذه السنة بينها الله في كتابه في آيات كثيرة:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ

رُسُلُهُمْ﴾ [سورة يونس: ١٣].

٢ - وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْتَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ

مَوْعِدًا﴾ [سورة الكهف: ٥٩].

٣ - وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٥].

٤ - وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [سورة

الأنعام: ١٣١].

٥ - وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِئْلكِ مَسْكِنُهُمْ

لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ

يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا

ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة القصص: ٥٨-٥٩].

٦ - وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ

مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٨].

٧ - وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا

الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٧].

٨- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٠٨]

٩- وقال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: ١٠٢].

١٠- وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا

وَأَلَيْ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الحج: ٤٨].

١١- وقال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا

وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا

وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٠]

والآيات في هذا كثيرة معلومة.

* وقد تكون عاقبة الظلم بالهلاك، الذي هو بمعنى الاستئصال والتدمير

الشامل، كما هو موضح في الآيات السابقة، وقد تكون عقوبة الظلم نسبية، كما

قال تعالى: ﴿فَظَلَمِ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ﴾ [سورة

النساء: ١٦٠]، فبسبب ظلمهم حرم الله عليهم من الطيبات ما ذكره في كتابه عقوبة

لهم وتنكيلا بهم.

وقال تعالى عن قوم سبا: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة

سبأ: ١٩]، فبسبب ظلمهم شتت الله شملهم.

* وقد بين الله في كتابه أن هذه السنة كغيرها من السنن من حيث العموم

والشمول، إذا تحققت الشروط والأسباب وانتفت الموانع، ولذلك فعند

استقراء القرآن نجد أنه لم تخل أمة ظالمة من حلول هذه السنة بها، وأن هذه سنة

الله في خلقه دائمة لا تتخلف، وعامة لا يستثنى منها أحد ممن توفرت فيه شروطه، وانتفت موانعها، ومن هذه الآيات: **قال تعالى:** ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [سورة محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [سورة القمر: ٤٣]

والاستفهام في الآية للإنكار، ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ

بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة المرسلات: ١٦-١٨].

والظلم في القرآن يأتي على ثلاثة أنواع:

١- ظلم بين الإنسان وبين الله: وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولهذا قال

تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ١٣].

٢- ظلم بينه وبين الناس: **قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ

فِي الْأَرْضِ بَغْيًا حَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الشورى: ٤٢].

٣- ظلم بينه وبين نفسه: **قال تعالى:** ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ

عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

* وقد وصف الله المشركين في القصص القرآني بالظلم؛ لأن الإشراف بالله

جامع لفنون الظلم، ففيه الاعتداء على حق الله، وظلم المشركين أنفسهم،

بتعريضها للعذاب، وظلمهم للرسول بالتكذيب، وظلمهم المؤمنين بالاعتداء على أموالهم وأعراضهم. فالشرك يشمل شتى أنواع الظلم المهلكة للأمم.

* ويبين الله لنا سبباً آخر في إهلاك الأمم، وهو أن ينتشر فيهم الترف والإسراف خاصة في المتحكمين في أمر هذه الأمم، مع عدم وجود وازع يردهم عن مزالق الهوى والطغيان، أو فئة تمنعهم من ارتكاب الرذائل.

وقد يكون هذا مندرجاً تحت النوع الثالث من أنواع الظلم، بأنه ظلم العبد لنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة هود: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١١ ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٢ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ ١٣ ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٤ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ﴾ ١٥ [سورة الأنبياء: ١١-١٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ١٦] [سورة الإسراء: ١٦].

والأمثلة في كتاب الله كثيرة على إهلاك الأمم السابقة نذكر بعضها:

قوم نوح عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ [سورة العنكبوت: ١٤-١٥].

قوم هود عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوُ (١٤) إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٢٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٢١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ (٢٣) وَجَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿٢٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٠﴾ [سورة الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

قوم صالح عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَثِمِينَ ﴿٧٨﴾ [سورة الأعراف: ٧٥-٧٨].

قوم لوط عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِوُ (١٦١) إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرٍ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ [سورة الشعراء: ١٦٠-١٧٤].

قوم شعيب عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ [سورة الشعراء: ١٥٣-١٨٩].

قوم موسى عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾ [سورة الأنفال: ٥٤].

الفوائد:

١- الوقوف على المنة الإلهية التي حباها الله تعالى للأمة المحمدية الخاتمة، فقد جعل الله النبي ﷺ رحمة للعالمين، وإذ أراد الله تكثير تابعيه، فلذلك لم يقض على مكذبيه قضاءً عاجلاً، بل أمهلهم وأملى لهم ليخرج منهم من يؤمن به، وسبيل ذلك الاستثناء أن الله تعالى أمسك عن الآيات الخوارق عن مشرك مكة، لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون، ولو أرسلت عليهم الآيات البينات وما اقترحوه من الخوارق لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها ولذلك لما قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: ٣٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣] والفائدة العظمى في توقف سنة الإهلاك عن هذه الأمة هي الوقوف على منة الله على هذه الأمة بأنها الأمة الخاتمة وشرعها هو المهيم على جميع الشرائع.

٢- الاتعاظ والاعتبار، فليس معنى نجاة الأمة من الاستئصال أن الأمة أصبحت بمنأى عن أي عذاب أو جزاء على ما تقتضيه من مخالفات، وإنما قد تصاب الأمة بجنس أو ببعض ما أصيبت به الأمم الهالكة، وإن كان لا يصل إلى حد الاستئصال لأنه مرفوع عنها، وقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي

بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». رواه أبو داود.

٣- الابتعاد عن الظلم بشتى أنواعه، قال النبي ﷺ: وعن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ، قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه مسلم.

٤- البعد عن المعاصي والمنكرات والإفساد في الأرض فإنه سبيل الهلاك.

٥- البعد عن الانغماس في حياة الترف والإسراف واتباع الشهوات.

السنة الثامنة عشرة

أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ إِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ

* بين الله هذه السنة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[سورة التوبة: ١١٥].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل أنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ﴾ [سورة فصلت: ١٧] وقال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[سورة التوبة: ١١٥] قال: بيان الله ﷻ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا. اهـ.

قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [سورة التوبة: ١١٥] أي: ما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى حتى يبين لهم ما يتقون، فلا يتقوه عند ذلك يستحقون الإضلال.

قلت -أي القرطبي-: ففي هذا أدل دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت، وانتهك حجابها، كانت سبباً إلى الضلالة والردى، وسلماً إلى ترك الرشاد والهدى...

الى أن قال: وهذه الآية ردُّ على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هداهم وإيمانهم. اهـ.

قال العلامة السعدي رحمته الله عند هذه الآية: هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر، إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذا الحال قتلهم واستئصالهم، **فقال الله تعالى:**

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٧] أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعون لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة للمصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأوفق أن لا يأسروا، فإذا أثنخوا وبطل شرهم واضمحل، فحيث لا بأس بأخذ الأسارى منهم، وإبقائهم... **الى أن قال:** ﴿لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٨] به القضاء والقدر أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم أيها الأمة العذاب. اهـ.

* ومن سبق في علم الله أنه من الضالين، فإن الآيات لا تنفعه ولا تزيده إلا طغياناً وكفراً، **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس: ٩٦-٩٧].

قال السعدي رحمته الله: **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس: ٩٦] أي: أنهم من الضالين الغاوين، أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم

الآيات إلا طغيانًا وغياً إلى غيهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به.

فحيثُ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق، ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون. اهـ.

👉 وهذه تعتبر سنة أخرى من سنن الله، وهو أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن الذين حقت عليهم الضلالة لا يؤمنون وأدلتها كثيرة من كتاب الله. منها قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [سورة الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [سورة الأعراف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٧]، وقال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٨٨]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

السُّنَّةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ

مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ

* بَيَّنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٢٥٣) كِتَابُ التَّفْسِيرِ سُورَةُ الزَّخْرَفِ:

قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ الْعَبْدِيُّ وَيَعْلَى بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ حَجَّاجِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي غَالِبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سُورَةُ الزَّخْرَفِ: ٥٨] وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ (٣٢٥٣).

قَالَ النَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "فَيْضِ الْقَدِيرِ" (٧٩٣٤): «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ»، أَي: مَا ضَلَّ قَوْمٌ مُهْدِيُونَ كَاتِنِينَ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ «إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ»، يَعْنِي: مَنْ تَرَكَ سَبِيلَ الْهُدَى وَرَكِبَ سُنَنَ الضَّلَالَةِ، وَالْمُرَادُ لَمْ يَمْشِ حَالَهُ إِلَّا بِالْجَدَلِ، أَي: الْخُصُومَةَ بِالْبَاطِلِ. قَالَ الْقَاضِي: الْمُرَادُ التَّعَصُّبُ لِتَرْوِيجِ الْمَذَاهِبِ الْكَاسِدَةِ، وَالْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ، لَا الْمُنَازَعَةَ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ، وَاسْتِكْشَافِ الْحَالِ وَاسْتِعْلَامِ مَا لَيْسَ مَعْلُومًا عِنْدَهُ، أَوْ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ مَا عِنْدَهُ، لِأَنَّهُ فَرَضَ كِفَايَةَ خَارِجٍ عَمَّا نَطَقَ بِهِ الْحَدِيثُ. اهـ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي "مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى" (١٢٣/٩) [ط دار الوفاء]:

ثُمَّ إِنَّ الْفَلَسَفَةَ أَصْحَابَ هَذَا الْمَنْطِقِ الْبِرْهَانِيِّ، الَّذِي وَضَعَهُ أَرِسْطُو وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ وَالْإِلَهِيِّ، لَيْسُوا أُمَّةً وَاحِدَةً، بَلْ أَصْنَافٌ مُتَفَرِّقُونَ، وَبَيْنَهُمْ مِنَ التَّفَرُّقِ

والاختلاف ما لا يحصيه إلا الله، أعظم مما بين الملة الواحدة كاليهود والنصارى أضعافاً مضاعفة؛ فإن القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب كان أعظم في تفرقهم واختلافهم، فإنهم يكونون أضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجِدَلَ» ثُمَّ قَرَأَ قَوْلُهُ **تَعَالَى**: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨] إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل، كما قال **تَعَالَى**: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا﴾ [سورة البقرة: ٢١٣] الْآيَةُ.

وَقَالَ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا﴾ [سورة الحديد: ٢٥] وَقَالَ: ﴿فَإِنْ نَنْزَعُكَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: ٥٩] الْآيَةُ.

وقد بين الله في كتابه من الأمثال المضروبة والمقاييس العقلية، ما يعرف به الحق والباطل، وأمر الله بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، وأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، **فَقَالَ:** ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١١٨ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩﴾ [سورة هود: ١١٨-١١٩].

ولهذا يوجد أتبع الناس للرسول أقل اختلافاً من جميع الطوائف المنتسبة للسنة، وكل من قرب للسنة كان أقل اختلافاً ممن بعد عنها، كالمعتزلة والرافضة فنجدهم أكثر الطوائف اختلافاً. اهـ.

* ومن أهم القواعد والأصول التي قامت عليها الفرق والأحزاب: اعتمادهم على الجدل المذموم: أهل البدع ابتلاهم الله بالجدل، فجعلوه دينهم يناطحون به الحق، ويقفون ضد دعائه، وقد دلت الأدلة الشرعية على أن التعمق في الجدل هو بديل عن الهدى الإلهي، عافانا الله جميعاً من ذلك، **قال الله تعالى:** ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤]، وقد حذر الله من الجدل بالباطل، والجدال عن أهل الباطل، واتباع المتشابه، **قال تعالى:** ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتَوَلَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩) [سورة النساء: ١٠٧-١٠٩].

وروى الإمام البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، **قَالَتْ:** تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ [سورة آل عمران: ٧] **قَالَتْ:** قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ». وفي البخاري ومسلم، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ».

قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل أخرجه الدار مي، وسنده صحيح.

قال الأوزاعي رحمه الله: إذا أراد الله بقوم شرًّا ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل، وهو صحيح إليه.

قال الإمام مالك رحمه الله: أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدله.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: في "مدارج السالكين" (٨/١): أفيظنُّ المُعرض عن كتاب ربِّه وسنَّة رسوله أن ينجو من ربِّه بآراء الرِّجال؟ أو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوُّع الأشكال؟ أو بالإشارات والشَّطحات وأنواع الخيال؟ هيهات! والله، لقد ظنَّ أكذب الظَّنِّ، ومثَّته نفسه أبينَ المُحال! وإنَّما ضُمنت النِّجاة لمن حَكَّم هدى الله تعالى على غيره، وتزوَّد التقوى، واثمَّ بالدليل، وسلك الصُّراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والله سميعٌ عليمٌ. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كما في "الاستقامة" ص (٢٣): فأما مُعارضة القرآن بمعقول أو قياس فهذا لم يكن يستحله أحد من السلف وإنَّما ابتدع ذلك لما ظهرت الجَهْمية والمعتزلة ونحوهم ممَّن بنوا أصول دينهم على ما سموه معقولا وردوا القرآن إليه وقالوا إذ تعارض العقل والشَّرع إمَّا أن يُفوض أو يتأوَّل فهو لاءٍ من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطان اتَّاهم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: أيضًا كما في "مجموع الفتاوى" (٣/٣١٥): وقد أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك إيتباع ما أنزله، وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات، وأمور غير ذلك. اهـ.

قلت: وفي هذا الزمن كم ترى من المنحرفين عن منهج أهل السنة والجماعة ممن كان منهم، ثم أزاغ الله قلبه بسبب معاصيه، وعدم إخلاصه، فتراه أصبح متنكراً لما كان عليه من الحق والهدى والخير، وأصبح يدافع عن الباطل وأهله، ويكثر الجدل والخصومة في ذلك، فتراه يدافع عن الحزبيات التي فرقت المسلمين، بعد أن كان حرباً عليها، داعياً إلى وحدة المسلمين على الكتاب والسنة، فأصبح يزخرفها ويشق عصا المسلمين بتكوين جماعة جديدة، وفرقة جديدة، وتراه يدافع عن بعض المنكرات التي كان يهز المنابر في التحذير منها، كتصوير ذوات الأرواح، والجري بعد أصحاب التجارات، جمعاً للأموال باسم الجمعيات، وتحقير أهل العلم الثابتين على الكتاب والسنة، ورميهم بالتُّهم، وأنهم لا يعرفون الواقع، وأنهم أصحاب الزوايا ولا يعلمون إلا حدثنا وأخبرنا، وفي نفس الوقت يشيد بالحزبيين الذين اخضعوا أدلة الكتاب والسنة تبعاً لأهوائهم، وما هي إلا أيام حتى يصبح غارقاً في الهوى والجدال بالباطل، فيموت ذكره قبل أن يموت جسده، فنسأل الله الثبات على الحق حتى الممات، وأن يصرف عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا إنه أرحم الراحمين.

الفوائد:

- ١ - سؤال الله الثبات على الحق حتى الممات، وكان من أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللهم يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».
- ٢ - الثبات على الحق من أسباب وجود حلاوة الإيمان، عن أنسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ».
- ٣ - أن نعلم أن الهداية بيد الله سبحانه، فربما ضل الشخص بعد هدايه، فيكون الإنسان على خوف من الله، دائم وسؤال له بالثبات.
- ٤ - عدم الاغترار بأهل الباطل وكثرة جدلهم، فإن هذه سنة الله فيهم أن يحرموا العلم النافع، وأن يخوضوا في الجدل بالباطل، والجدال عن أهل الباطل.
- ٥ - الحذر من مجالسة أهل الباطل. فإنهم أهل جدل وربما تأثر المجالس لهم. ولو كان على سنة، فإن لجليل سوء تأثيراً على جليسه، كما أخبر بذلك النبي ﷺ: عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ جَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَمَثَلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكَيْسِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكَيْسِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».
- ٦ - أن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، فعلى المسلم أن لا يكون مقلداً في دينه، وأن يأخذ دينه من الكتاب والسنة، اللذان هما معصومان من الخطأ والغواية.

السُّنَّةُ الْعَشْرُونَ

كُلُّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَخِيبُ وَلَا يَفْلَحُ

* هذه سُنَّةُ مَنْ سَنَّ اللَّهُ أَنْ كُلَّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ:

١ - قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [سورة

يونس: ٦٩].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَوَعَّدَ تَعَالَى الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ، الْمَفْتَرِينَ مِمَّنْ زَعَمَ أَنْ لَهُ وَلَدٌ بِأَنَّهُمْ لَا يَفْلَحُونَ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ، مَتَّعَهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَي: مَتَّاعُ مَدَّةٍ قَرِيبَةٍ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أَي: الْمَوْجِعَ الْمُؤْلِمَ. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠) أَي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ، فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِفْكَ وَالزُّورِ.

٢ - وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ (١١٦) مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) [سورة النحل: ١١٦-١١٧].

* وَبَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، أَنَّ أَعْظَمَ الْإِفْثَاءِ هُوَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٤٨] [سورة النساء: ٤٨].

✽ ونزّه رسوله ﷺ أن يكون افتري على الله، كما اتهمه الكفار، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣٨].

✽ وبين أن افتراء الكذب على الله من أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [سورة يونس: ٦٠].

✽ ونزّه كتابه أن يكون مفترى، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة يونس: ٣٨]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ [سورة هود: ٣٥].

٣- وأبان الله كيف تكون عقوبة افتراء الكذب على الله فقال تعالى: ﴿وَلِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۚ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۚ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٣-٧٥].

قال السعدي رحمه الله: يذكر تعالى منته على لرسوله محمد ﷺ، وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَلِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ [سورة الإسراء: ٧٣] أي: قد كادوا لك أمرا لم يدركوه، وتحيلوا لك على أن تفترى على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء

بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك... **الى أن قال:** ولو ركنت إليهم بما يهونون لأصبتك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة.

٤ - **ويقول الله تعالى:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا^ط﴾

[سورة الأحقاف: ٨].

قال السعدي رحمه الله: أي: فإن الله قادر عليّ وبما تفيضون فيه، عالم فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ فهل تملكون لي من الله شيئاً إن أرادني الله بضرٍ، أو أرادني برحمة: ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^ط﴾ [سورة الأحقاف: ٨] فلو كنت متقولاً عليه لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد لأن هذا أعظم الافتراء لو كنت متقولاً.

٥ - **وقال الله تعالى:** ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ^ط﴾ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ^ط ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا

مِنْهُ الْوَتِينَ^ط ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ^ط ﴿٤٧﴾ [سورة الحاقة: ٤٤-٤٧].

قال السعدي رحمه الله: لو قدر أن الرسول حاشا وكلا، تقول على الله لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم وعلى كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه. اهـ.

٦ - **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ^ط﴾ [سورة الأعراف: ١٥٢].

قال السعدي رحمه الله: فكل مفتر على الله الكذب، متقول عليه مالم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى عنهم إلا بذلك فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى. اهـ.

وقد ذكر الله بعض الأمثلة على أولئك الذين يفترون عليه كذبًا، وذكرهم رسول الله ﷺ فمنهم عمرو بن لحي، وقد رآه النبي ﷺ وهو يجر قصبه في النار.

قال ابن كثير رحمه الله: عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٤].

قال: وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي، لأنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سبب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

٧- قد بين موسى عليه السلام هذه السنة، وقررها لسحرة فرعون، عندما وعظهم. **قال تعالى:** ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [سورة طه: ٦١].

قال ابن كثير رحمه الله: أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [سورة طه: ٦١] أي: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية به، وقد خاب من افتري. اهـ.

فرتب الخيبة والخسارة لكل من افتري على الله كذبًا. ويدخل في ذلك مدعوا النبوة، كأمثال مسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدي، والأسود العنسي، فإنهم من رؤوس المفترين على الله الكذب، وقد أهلكهم الله في الدنيا، ومكن عباده الصالحين من رقابهم، وأذلهم وأذل أتباعهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

فائدة: عقوبة معجلة لأحد المفترين على الله الكذب:

في "صحيح مسلم" عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِّنْ بَنِي النَّجَّارِ قَدْ قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَكَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّى لَحِقَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ - قَالَ - فَرَفَعُوهُ قَالُوا هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ فَأَعْجَبُوا بِهِ فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللَّهُ عُنُقَهُ فِيهِمْ فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا فَتَرَكُوهُ مَنبُودًا.

فانظر كيف كان عاقبة هذا المفترى، والذي كان يقول: ما يعلم محمد إلا ما كتبه له، أن طرحته الأرض ولم تقبله، فصار عبرة للناظرين.

الفوائد:

- ١ - الحذر من الشرك فإنه أعظم الافتراء على الله.
- ٢ - الحذر من القول على الله بغير علم، فإنه من الكبائر، وصاحبه معرض للهلاك والخسارة، **قال تعالى:** ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النحل: ١١٦-١١٧].
- وقال تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٣-٣٤].
- ٣ - حفظ الله لدينه، ودفاعه عن نبيه في إهلاك المفتريين عليه وعلى رسوله.
- ٤ - عدم استعجال عقوبة المفتري، فقد تؤخر عقوبته في الآخرة، فإن متاع الدنيا قليل، ولكن الغالب أن المفتري تعجل له العقوبة في الدنيا، وتصيبه الذلة والخسارة.

السنة الواحدة والعشرون

إِذَا طَلَبَ الْكُفَّارُ نَزُولَ الْآيَاتِ أَوْ وَقُوعَهَا، فَإِنَّهُ بَعْدَ نَزُولِهَا إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا فَسَنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْخَرُونَ بَعْدَهَا، بَلْ يَهْلِكُهُمْ

* بَيَّنَّ اللَّهُ هَذِهِ السَّنَةَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ:

١ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ

وَأَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٩].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ [سورة

الإسراء: ٥٩]، أَي: نَبَعَثَ بِالْآيَاتِ، وَنَأْتِي بِهَا عَلَى مَا سَأَلَ قَوْمُكَ مِنْكَ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ لَدَيْنَا، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ بَعْدَ مَا سَأَلُوها، وَجَرَتْ سَنَتُنَا فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يُؤْخَرُونَ إِذَا كَذَّبُوا بِهَا بَعْدَ نَزُولِهَا. اهـ.

٢ - قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْهُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ،

عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ إِيَّاسٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:

سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا وَأَنْ يُنْحِيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ

فَيَزْدَرِعُوا فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِي بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا

فَإِنْ كَفَرُوا أَهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتَ مَنْ قَبْلَهُمْ، قَالَ: «بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ

هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَأَيْنَا ثُمُودَ

النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [سورة الإسراء: ٥٩] الْآيَةَ.

دَرَبُ عَلَيْهِ السَّبْغُ مَقْبَلُ بْنُ هَادِيٍّ الرَّادِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الْجَامِعِ الصَّحِيحِ

مِمَّا لَيْسَ فِي الصَّحِيحِينَ" (٣/ كتاب دلائل النبوة) [باب عقوبة من كذب بالآيات].

قال ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية»: فصل: فيما اعترض به المشركون على عهد رسول الله ﷺ وما تعنتوا له في أسئلتهم إياه، أنواعاً من الآيات وخرق العادات، على وجه العناد لا على وجه طلب الهدى والرشاد، فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، ولا ما إليه رغبوا، لعلم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا لاستمروا في طغيانهم يعمهون، ولأظلموا في غيهم وضلالهم يترددون.

٣- **قال الله تعالى:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلِبُ أَفْعَادَهُمْ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩-١١١].

٤- **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة يونس: ٩٦-٩٧].

٥- **قال تعالى:** ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الإسراء: ٥٩].

٦- **وقال تعالى:** ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٦٠﴾ أَوْ تُكُونَ لَكَ جِنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِيَّةِ قَبِيلًا ﴿٦٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ

سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٤].

٧- **وقال تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ
نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا
وَعَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ
فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ [سورة المائدة: ١١٢-١١٥].

👉 فقد بين الله أنه بعد أن ينزل هذه المائدة إن لم يؤمنوا، فإنه سيعذبهم هذا
العذاب الشديد، وقد اختلف المفسرون هل نزلت المائدة أم لا؟

والجواب: الذي رجحه ابن كثير وابن جرير أنها نزلت، لقول الله: ﴿قَالَ اللَّهُ
إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المائدة: ١١٥]، ووعد الله حق وصدق، وقد عذب الله الذين
كفروا بهذه الآية. واختلفوا في نوع العذاب الذي عذبوا به.

وقصَّ الله علينا قصة قوم صالح حينما سألوا آية، أن يخرج الله لهم من
الصخرة ناقة، فدعا صالح ربه فأخرج لهم ناقة على ما سألوا، فظلموا بها، أي:
كفروا بمن خلقها وكذبوا رسله وعقروا الناقة، **فقال:** ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [سورة هود: ٦٥]، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا
في دارهم جاثمين.

الفوائد:

- ١ - رحمة الله بهذه الأمة حيث لم يجبههم إلى ما سألوا، حتى لا يعذبهم ويهلكهم لو كفروا بعد نزول الآيات.
- ٢ - الاستسلام لشرع الله، فإن الذي لا يستسلم لشرع الله يشاد الدين، ويوشك أن ينقطع، قال النبي ﷺ: «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ».
- ٣ - استجابة الله دعاء عباده الصالحين، كاستجابته لصالح في إخراج الناقة ولعيسى في نزول المائدة.
- ٤ - رحمة النبي ﷺ بأمتة، حيث قال: «بل أستاذني بهم».

السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ وَالْعَشْرُونَ

مَا تَقَابَلَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَيُصَلِّ إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ
الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الفتح: ٢٢-٢٣].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول الله ﷻ مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله، وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبراً، لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، ثم قال رحمه الله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الفتح: ٢٣]، أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم. اهـ.

قلت: ولعل ابن كثير رحمه الله قيد الموطن الذي يلتقي فيه الكفر مع الإيمان بالفصل، إشعاراً بأنه قد يدل الله الكافرين أحياناً على المؤمنين، في مواطن ليست بفصل، وذلك لحكم يعلمها سبحانه منها وقوع المؤمنين في بعض المعاصي، ومنها بيان أن النصر من عند الله، وليس بكثرة العدد والعُدَّة، فقد نصر الله نبيه والمسلمين في غزوة بدر نصراً عظيماً وهم قليلي العدد والعدة قال

الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة آل

عمران: ١٢٣].

وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَذْبَرُ ثَمًّا لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحشر: ١١-١٢].

فبين الله سبحانه في هذه الآية أنه لو اتقوا مع المؤمنين، لولى المنافقون أدبارهم، ولنصر الله أهل الإيمان عليهم وقد ذكر الله عدة أسباب لذلك:

١ - منها الوعد الذي وعد الله عباده بنصرهم، وأن هذه سنة لا تتغير ولا تبدل، **قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا جُنَدًا لَهُمُ الْعَالِبُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧١-١٧٣]، **وقال تعالى:** ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: ٤٧].

٢ - ومنها اتصاف الكافرين بالجبن ومحبة الحياة الدنيا، **قال الله تعالى:** ﴿وَلَنَجْذِئَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٩٦]، **وقال الله تعالى:** ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٣].

٣ - ومنها اختلافهم الشديد، ولو ظهر أمام الناس أنهم متفقون، **قال الله تعالى:** ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [سورة الحشر: ١٤] إلى غير ذلك من الأسباب.

ولهذا حث الله على قتالهم، **فقال:** ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٤].

وفي قصة موسى **عليه السلام** التقى الكفر متمثلاً في فرعون وملائته وسحرته مع الإيمان، متمثلاً في موسى وحده في موطن فيصل، في حين اجتماع الناس في يوم الزينة، فأظهر الله الإيمان ودحر الكفر، وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون وكان من نتيجة ذلك أن آمن سحرة فرعون جميعاً، عندما رأوا هذه الآية العظيمة، وعلموا أن موسى نبي الله حقاً، وصبروا على عذاب فرعون وفتنته.

وفي قصة إبراهيم **عليه السلام** مع النمرود، أظهر الله حجة إبراهيم دامغةً لشبهة ذلك الكافر، فنصر الله نبيه إبراهيم وبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

وقد كتب شيخ الإسلام **رحمه الله** كتاباً بعد رحيل قازان وجنوده مقدم شيخ الإسلام **رحمه الله** من مصر في جمادي الآخرة، وأشاعوا أنهم لم يبق منهم أحد، فبقيت طائفة اشتغل شيخ الإسلام ومن معه بجهادهم، حتى جاء الخبر بانصراف المتبقين منهم، فكتبه في رجب كما جاء في "مجموع الفتاوى" (٢٨/٤٢٤) قال **رحمه الله**:

أما بعد: فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا

عَزِيزًا ﴿ [سورة الأحزاب: ٢٥]، والله تعالى يحقق لنا التمام بقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٦]، ﴿ وَأَوْزَنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَدِيرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٧]، فإن هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام: قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه وابتلى بها نبيه والمؤمنين: مما هو أسوأ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا إلى يوم القيامة؛ فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي أو بالعموم المعنوي.

وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها، وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا، فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين. ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجمل قصص الأنبياء...

ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ مَذْمُومًا مَا يُفْتَرَى ﴾ [سورة يوسف: ١١١] أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفتري من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة.

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٥٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً

لِمَن يَخْشَى ﴿٦١﴾ [سورة النازعات: ٢٥-٢٦]، وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه

ببدر وغيرها: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٣] [سورة آل عمران: ١٣]، وقال

تعالى في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ

دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ

اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ

فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ [سورة الحشر: ٢]

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم.

وذكر في غير موضع: أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة، فقال تعالى:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا

وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

﴿٦٢﴾ [سورة الأحزاب: ٦٠-٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ لَا أَدْبَرْتُمْ لَا

يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

﴿٢٣﴾ [سورة الفتح: ٢٢-٢٣]، وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين

كدأب الكافرين من المتقدمين.

فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عبادته، ودأب الأمم وعاداتهم لا

سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها واستطار في جميع

ديار الإسلام شررها وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورا، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبهم وظنوا ظن السوء وكانوا قوما بورا ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان.

وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمان ورفع بها أقواما إلى الدرجات العالية كما خفض بها أقواما إلى المنازل الهاوية وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى. اهـ.

السنة الثالثة والعشرون

إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا

* بين هذه السنة رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود وغيره، **وقال:** [باب: ما يذكر في قرن المائة]:

قال: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْمَهْرِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ شَرَّاحِيلَ بْنِ يَزِيدَ الْمَعَاوِرِيِّ، عَنْ أَبِي عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فِيمَا أَعْلَمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا». وصححه الشيخ الألباني رحمته الله في «السلسلة الصحيحة» برقم (٥٩٩).

👉 **والمراد من التجديد:** إحياء ما أندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاها، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.

ولا يعلم ذلك المجدد إلا بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء، بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه، إذ المجدد للدين يكون عالماً بالأمور الدينية، باطنًا وظاهرًا ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة، وأن يعم علمه أهل زمانه.

* وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخراط العلماء فيه غالباً، واندراس السنن وظهور البدع، فيحتاج الدين حينئذٍ إلى تجديد، فيأتي الله تعالى من الخلق بعوض من السلف، إما واحداً وإما متعدداً.

وقال القاري رحمه الله في «المراقبة»: أي: يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، ويعز أهلها، ويقمع البدعة، ويكسر أهلها. اهـ.

فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالمًا بالأمور الدينية، ومع ذلك من كان عزمه وهمته إثناء الليل وإناء النهار إحياء السنن، ونشرها ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب أو التدريس، أو غير ذلك. ومن لا يكون كذلك لا يكون مجددًا البتة، وإن كان عالمًا بالعلوم، مشهورًا بين الناس مرجعًا لهم، والعجب كل العجب من صاحب جامع الأصول أنه عدَّ أبا جعفر الأمامي الشيعي والمرتضى أخا الرضا الأمامي الشيعي من المجددين. وعدُّهما من المجددين خطأً فاحشاً وغلطاً بين، لأن علماء الشيعة وإن وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد، وبلغوا أقصى مراتب من أنواع العلوم واشتهروا غاية الاشتهار، لكنهم لا يستأهلون المجددية. كيف وهم يخربون الدين؟ فكيف يجددون؟ ويميتون السنن، فكيف يحيونها؟ ويروجون البدع، فكيف يمحونها؟ وليسوا إلا من المبطلين الغالين الجاهلين، وجل صناعتهم التحريف والانتحال والتأويل.

ثم قال: ولا يلزم أن يكون على رأس كل مائة سنة مجددٌ واحد فقط، بل يمكن أن يكون أكثر من واحد.

قال السيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١/١٤٨): **فائدة:** أشار الإمام أحمد إلى صحة الحديث، فقد ذكر الذهبي في السير (١٠/٤٦): وقال الإمام أحمد من طرق عنه: أن الله يقيض للناس في رأس كل مائة من يعلمهم

السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب. قال: فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المائتين الشافعي.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: كما في "مجموع الفتاوى" (٢٩٦/١٨): أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق أعزاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل، فأما بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا، وقوله ﷺ: «ثم يعود غريباً كما بدأ» أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه وقد **قال تعالى:** ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة المائدة: ٥٤]، فهو لاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك، وكذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله ﷻ كما كان عمر بن عبد العزيز لما ولي قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر، فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريباً، وفي السنن: «إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، والتجديد إنما يكون بعد الدروس وذاك هو غربة الإسلام.

* وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقله من يعرف حقيقة الإسلام ولا يضيق صدره بذلك ولا يكون في شك من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدأ.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ قَبْلِهِ رَسُولٌ﴾ [سورة يونس: ٩٤] إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام، وكذلك إذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما

احتاج إليه في أول الأمر، **وقد قال له:** ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الأنعام: ١١٤-١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٤]، وقد تكون الغربة في بعض شرائعه وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة. ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريبا بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد، ومع هذا فطوبى لمن تمسك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله، فإن إظهاره والأمر به والإنكار على من خالفه هو بحسب القوة والأعوان، وقد قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»، وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به رسوله وأتباعه فهذا من ذنوبه ونقص إسلامه كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد، وإلا فقد **قال تعالى:** ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [سورة غافر: ٥١].

قلت: وهذا مندرج في حفظ الله تعالى لدينه ولكتابه، **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩].

الفوائد

- ١- أن لا يغتمَّ المسلم بقله من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره ولا يكون في شك من الإسلام، كما قاله شيخ الإسلام رحمه الله.
- ٢- أن يعلم بأن الله حافظ دينه، **قال تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩].
- ٣- أن الله ينصر هذا الدين بمن يشاء من عباده **قال تعالى:** ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص: ٦٨]، وله الحكمة البالغة سبحانه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين حتى قيام الساعة.

السنة الرابعة والعشرون

أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ

* بين الله هذه السنة في عدة آيات من كتابه الكريم:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢].

قال السعدي رحمه الله: يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك ويحسدونك، فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [سورة الأنعام: ١١٢] أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة والعبارات المموهة، فيعتقون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال: ﴿وَلِصَغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدُهُ﴾ [سورة الأنعام: ١١٣]، أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [سورة الأنعام: ١١٣]، لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك ﴿وَلِيَرِضُوهُ﴾ [سورة الأنعام: ١١٣]، بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه وزين في قلوبهم وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقتربوا من الأعمال

والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة. فهذه حال المغترِّين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولوا العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات.

إلى أن قال رحمه الله: ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى، ومن حكمته إن في ذلك بيانا للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فانه حينئذ يتبين من أدلة الحق وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون. اهـ.

٢- **وقال الله تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ

هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي: كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما **قال تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢) **ولنصغى إليه أفعدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليفتروا ما هم مفترون﴾** (١١٣) [سورة الأنعام: ١١٢-١١٣]؛ ولهذا **قال تعالى** ها هنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣١]

أي: لمن اتبع رسله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣١]؛ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن إتباع القرآن لئلا يهتدي به أحد، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣١] اهـ.

قلت: وقد أخبر النبي ﷺ أن العلماء ورثة الأنبياء، فلهذا فإن سنة الله هذه تتعدى إلى كل من حمل هذا الهدى، الذي جاء به الأنبياء، فإن الله يجعل له عدواً من المجرمين من شياطين الإنس والجن.

وارجع إلى الأدلة في السنة الأولى: سنة تكذيب أنبياء الله ورسله، وإخراجهم من أرضهم فإنها تدل على ما تضمنته هذه السنة.

* وقد بين الله فيما سبق من الآيات أن من أعظم وسائل الشياطين لإضلال الناس هو تزيين الباطل، والتلبيس على الناس وخداعهم، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله مثلاً على هذا التزيين والتلبيس الذي يقوم به أعداء الرسل وأعداء دينه في كتابه "إعلام الموقعين" (٦/ ٩٦-٩٨) دار ابن الجوزي.

قال رحمه الله: في معرض كلامه أن المفتي يجب عليه الاستفصال حيث يكون السؤال محتملاً قال: فكثيراً ما يقع غلط المفتي في هذا القسم، فالمفتي ترد عليه المسائل في قوالب متنوعة جداً، فإن لم يتفطن لحقيقة السؤال وإلا هلك وأهلك.

الى أن قال: فلا إله إلا الله كم هنا من مزلة أقدام، ومحل أوهام، وما دعا محق إلى حق إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليه من الإنس في قالب تنفر عنه خفافيش البصائر وضعفاء العقول، وهم أكثر الناس وما حذر أحد من باطل إلا أخرجه الشيطان على لسان وليه من الإنس في قالب مزيف مزخرف يستخف به عقول ذلك الضرب، من الناس فيستجيون له وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور لا يتجاوزها إلى الحقائق فهم محبوسون في سجن الألفاظ مقيدون بقيود العبارات، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْنَعِ الْإِنْسَ آفِئْدَةً لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١١٢-١١٣].

وأذكر لك من هذا مثالا وقع في زماننا، وهو أن السلطان أمر أهل الذمة بتغيير عمامتهم، وأن تكون خلاف ألوان عمام المسلمين، فقامت لذلك قيامتهم وعظم ذلك عليهم، وكان في ذلك من المصالح وإعزاز المسلمين وإذلال الكفرة، ما قرت به أعين المسلمين، فألقى الشيطان على السنة أولياءه أن صوروا فتيا يتوصلون بها إلى إزالة هذا الغيار، وهي ما تقول السادة العلماء في قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد، وزى غير زيهم المألوف، فحصل لهم بذلك ضرر عظيم في الطرقات والفلوات، وتجراً عليهم بسببه السفهاء والرعاع، وأذوهم غاية الأذى، فطمع بذلك أهانتهم والتعدي عليهم؟ فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه، مع حصول التميز بعلامة يعرفون بها؟ وهل في ذلك مخالفة للشرع أم لا؟ فأجابهم

من منع التوفيق وصد عن الطريق، بجواز ذلك وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه. قال شيخنا: فجاءتني الفتوى، فقلت: لا تجوز إعادتهم ويجب إبقاؤهم على الزبي الذي يتميزون به عن المسلمين، فذهبوا ثم غيروا الفتوى فجاءوا بها في قالب آخر. فقلت: لا تجوز إعادتهم فذهبوا وغيروا وأتوا بها في قالب آخر، فقلت هي المسألة المعينة، وإن خرجت في عدة قوالب، ثم ذهب إلى السلطان وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون، فأطبق القوم على إبقائهم والله الحمد. اهـ.

الفوائد:

- ١ - الصبر على الأذى في سبيل الله، فإن سنة الله أن لا يأتي أحد بمثل ما جاء به النبي ﷺ، إلا عُودي وأوذي ولكن العاقبة له.
- ٢ - أن من الإنس شياطين، كما أن من الجن شياطين، فيُستعاذ بالله منهم، ويستعان بالله في دفع شرهم.
- ٣ - فيه التسلية لكل من أُوذي من الصالحين في الدعوة إلى الله، بالتأسي بالأنبياء، وإنهم تعرضوا لمن يعاديهم وينفر الناس عنهم.
- ٤ - أن أهل الباطل وأعداء الرسل يزخرفون الباطل ويروجون له، ويشوهون الحق وأهله بكل ما أوتوا من الوسائل، ولكن يأبى الله إلا إزهاق باطلهم وإحقاق الحق.
- ٥ - أن هذه الدنيا دار ابتلاء، ليعلم الله من يصبر على الأذى ممن لم يصبر.
- ٦ - الإيمان بحكمة الله سبحانه في كل ما قضاه وقدره، سواء علمنا تلك الحكمة أم لم نعلمها.

السنة الخامسة والعشرون

أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ مَنْ أَرَادَ بِعِلْمِهِ اللَّهَ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، وَيَحْطُ مَنْ أَرَادَ
بِعِلْمِهِ الدُّنْيَا، وَنَسِيَ الذِّكْرَ أَوْ حَرَّفَهُ

* بَيَّنَّ اللَّهُ هَذِهِ السُّنَّةَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ:

١ - **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة

المجادلة: ١١].

قَالَ ابْنُ الْمُجَزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "زَادَ الْمَسِيرَ": أَيُّ: يَرْفَعُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ عَلَى مَنْ لَيْسَ
بِمُنْزَلَتِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيَرْفَعُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ.

* **وَهَلْ هَذَا الِرْفَعُ فِي الدُّنْيَا أَمْ فِي الْآخِرَةِ؟**

فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ ارْتِفَاعِ دَرَجَاتِهِمَا فِي الْجَنَّةِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ
ارْتِفَاعُ مَجَالِسِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَيَكُونُ تَرْتِيبُهُمْ فِيهَا بِحَسَبِ فَضَائِلِهِمْ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ.
وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ أَفْهَمُوا هَذِهِ الْآيَةَ، وَلْتَرْغَبْكُمْ فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ
اللَّهَ يَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ الْعَالِمَ فَوْقَ مَنْ لَا يَعْلَمُ دَرَجَاتٍ. اهـ.

٢ - عَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَكَانَ عُمَرُ
يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ ابْنُ أَبِزَى. قَالَ
وَمَنْ ابْنُ أَبِزَى؟ قَالَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى! قَالَ إِنَّهُ
قَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ:
«إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قال السَّيِّغُ ابْنُ عَمِيْنٍ رحمته الله عند شرح هذا الحديث من "رياض الصالحين" رقم (٩٩٦): معنى هذا الحديث أن هذا القرآن يأخذه أناس يتلونه ويقرؤنه، فمنهم من يرفعه الله في الدنيا والآخرة، ومنهم من يضعه الله به في الدنيا والآخرة، فمن هذا؟ ومن هذا؟ من عمل بالقرآن تصديقاً لأخباره، وتنفيذاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه، واهتداءً بهديه، وتخلقاً لما جاء به من أخلاق، وكلها أخلاق فاضلة، فإن الله يرفعه بها في الدنيا والآخرة، وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم، ومنبع العلم، وكل العلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١]، أما في الآخرة فيرفع الله به أقواماً في جنات النعيم، ويقال للقارئ اقرأ ورتل واصعد إلى منتهى قراءته صعوداً في الجنة إن شاء الله، وأما الذين يضعهم الله به فقوم يقرؤنه ويحسنون قراءته لكنهم يستكبرون عنه والعياذ بالله، لا يصدقون بأخباره، ولا يعملون بأحكامه، يستكبرون عنه عملاً ويجحدونه خبراً، إذا جاءهم شيء من القرآن كقصص الأنبياء والسابقين أو غيرهم أو عن اليوم الآخر أو ما أشبه ذلك صاروا والعياذ بالله يشككون في ذلك، ولا يؤمنون بل في قلوبهم مرض، مرتابون والعياذ بالله وربما يصل بهم الحال إلى الجحد مع أنهم يقرأون القرآن، وفي الأحكام يستكبرون، ولا يأترون بأمره، ولا ينتهون بنهيه.

هؤلاء والعياذ بالله يضعهم الله في الدنيا والآخرة، ولا بد أن يكون أمرهم خساراً، حتى لو دانت لهم الدنيا وتزخرفت، فإن مآلهم إلى الخسارة والعياذ بالله. ولكن ربما يمهل لهم ويملي لهم وتفتح عليهم الدنيا، ولكنهم كلما انفتح

عليهم شيء من زهرة الدنيا فإنهم لا يزدادون إلا خسارًا والعياذ بالله، ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْنَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٠].

٣- **ويقول الله تعالى:** مبينًا حال من انسلخ عن آيات الله وأخلد إلى الأرض: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

قال ابن القيم رحمه الله في "إعلام الموقعين" (٢/ ٢٨٩): دار ابن الجوزي: شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شرًّا وحرصًا.

ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمم ويستروح حرصًا وشرًّا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمه، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنایا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميته تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها معه شيئًا، إلا هَرَّ عليه وقهره لحرصه وبخله وشره.

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئةٍ رثة، وثيابٍ دنية، وحالٍ رزية نبَّحه، وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته.

وإذا رأى ذا هيئةٍ حسنة وثيابٍ جميلةٍ ورياسة، وضع له خطمه بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسه، وفي تشبيهه من أثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة، مع وفور علمه بالكلب في حال لهفِّه، سر بديع وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته وإتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللَّهْفِ عليها ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللَّهْفُ واللَّهْثُ شيئان وإخوان في اللفظ والمعنى.

✽ قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انسلك من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا لقلة صبره عنها، وهذا يلهث لقلة صبره عن الماء. فالكلب من أقل الحيوانات صبراً على الماء وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثاً، يلهث قائماً وقاعداً وماشياً وواقفاً.

الى أن قال: وأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي بإتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به.

فنعوذ بالله من علمٍ لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما اغتاله من العلم، وإن لم يرفعه الله به فهو موضوع لا يرفع أحدًا به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه. اهـ.

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا. رواه أبو داود وصححه الألباني رحمهما الله في «صحيح أبي داود» (٣٦٦٤).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمهما الله في «شرح رياض الصالحين» عند هذا الحديث: الذي يتعلم شريعة الله وما يساندها، فهذا علم لا يبتغى به إلا وجه الله، إذا أراد به الدنيا فإنه لا يجد ريح الجنة يوم القيامة، وهذا وعيد شديد والعياذ بالله، يدل على أن من قصد بتعلم الشريعة شيئًا من أمور الدنيا فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب، ولا يبارك له في علمه...

ثم قال رحمهما الله: احذر أخي طالب العلم من النيات السيئة، العلم الشرعي أعزُّ وأعلي وأرفع من أن تريد به عرضًا من الدنيا، عرض الدنيا ما الذي تنتفع به؟ آخر أمره أن يكون في محل القاذورات تأكل وتشرب ويروح للمرحاض، ولو بقيت عندك الدنيا، فلا بد أن تفارقها أو تفارقك، إما أن تفتقر وتعدم المال، وإما أن تموت ويذهب المال لغيرك. اهـ.

٥ - **وقال سبحانه:** ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَسَوْأَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤) يَتَأَهَّلُ الْكِتَابِ قَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ [سورة المائدة: ١٤-١٥]. ففي هؤلاء الآيات بيان حال الذين نسوا الذكر وحرفوه عن مواضعه.

٦- وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤].

٧- وقال الله تعالى عن أصحاب السبت: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٥]

٨- وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [سورة الحديد: ١٦].

٩- وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْغَى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [سورة الفرقان: ١٨].

الفوائد:

١- الإخلاص لله في طلب العلم، وأن ذلك من أسباب الرفعة في الدنيا، والفوز في الآخرة.

٢- الحذر من إرادة الدنيا بعلم الآخرة، فإن ذلك من كبائر الذنوب.

٣- الحذر من نسيان العلم وتحريفه.

٤- معرفة أسباب الرفعة الحقيقية، وأن الله هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

السنة السادسة والعشرون

نصر الله لأنبيائه ورسله

* بين الله تعالى هذه السنة في آيات كثيرة من كتابه:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ [سورة الفتح: ٢٢-٢٤].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله ﷻ مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، وهذه سنة الله وعادته في خلقه ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم. اهـ.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [سورة غافر: ٥١].

قال ابن كثير رحمه الله: قد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة غافر: ٥١] سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء قد قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من

خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم أو إلى السماء كعيسى فأين النصره في الدنيا؟

ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عامًا، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغٌ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواءً كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا، سَلَطَ عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم.

* وقد ذُكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيزٍ مقتدر، وأما الذين راموا صلب عيسى عليه السلام من اليهود فسَلَطَ الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم وأظهرهم الله عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى عليه السلام إمامًا عادلاً وحكمًا مقسطًا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يُقبل إلا الإسلام، وهذه نُصرة عظيمة، وهذه سُنّة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويُقر أعينهم ممن آذاهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»، وفي الحديث الآخر: «إِنِّي لَأَنَارُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَنَارُ اللَّيْثُ لِلْحَرْبِ».

* ولهذا أهلك الله قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباهم وأضراهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجي الله تعالى

من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحدًا، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدًا.

قال السري: لم يبعث الله ﷺ رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله ﷻ لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا.

قال: فكانت الأنبياء والمؤمنين يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذّبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً.

ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم له وقتل صناديدهم وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرّرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك.

وفُتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله ﷻ أصحابه خلفاء من بعده فبلّغوا عنه دين الله ﷻ ودعوا عباد الله تعالى إلى الله B، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لازال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة.

ولهذا قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ﴾ [سورة غافر: ٥١]، أي: يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل. اهـ.

٣- وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: ٤٧].

قال ابن كثير رحمه الله: هذه تسليية من الله لعبده ورسوله محمدا ﷺ بأنه وإن
كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذِّبَت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا
أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجي
المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: ٤٧]، أي: هو حق
أوجبه على نفسه الكريمة تفضلاً وتكرماً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢] اهـ.

٤- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ
نَصَرُوا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٤].

قال ابن كثير رحمه الله: هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه،
وأمر له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نُصروا،
وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى
البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا
مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ٣٤] أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده
المؤمنين. اهـ.

٥- وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ١٣-١٥].

قال ابن كثير رحمه الله: وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرفقه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائهم منهم ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ١٣-١٥].

كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧١-١٧٤].

٦- وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَاغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة

المجادلة: ٢١].

٧- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥].

٨- وقال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ

يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨].

٩- وقال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ

وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ

وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ ۖ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [سورة

الأعراف: ١٣٧]. اهـ.

قلت: والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

الفوائد:

١ - على المؤمن أن يكون واثقاً بنصر الله تعالى، وأنه مع الذين آمنوا ومع عباده الصالحين فيزيد ذلك من قوة توكله على الله تعالى.

٢ - أن لا يغتر بالكافرين وديناهم وتقلبهم في البلاد **قال تعالى:** ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٥].

٣ - أن يعلم المؤمن أن سبب نصر الله لهؤلاء المؤمنين هو تمسكهم بالحق، وأنه بقدر تمسكهم بالحق وبُعدهم عنه يكون نصرهم وهزيمتهم.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [سورة محمد: ٧-٨].

وقال النبي ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

إن نصر الله ﷻ لعباده الصالحين ولأنبيائه المرسلين قبل ذلك قد يكون معجلاً، أو قد يكون مؤجلاً، فمن الصالحين من لا ينتشر علمه ونفعه إلا بعد موته ويعود إليه الأجور الكبيرة وهو في قبره، في حين كان في حياته مضطهداً مستضعفاً ولكن الله نصره بعد موته.

السُّنَّةُ السَّابِعَةُ وَالْعَشْرُونَ

أَنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

* بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ هذه السُّنَّةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ:

١ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٥٣].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ﷻ فِي تَفْسِيرِهِ: الْعَذَابُ الَّذِي أَوْقَعَهُ اللَّهُ بِالْأُمَّمِ الْمَكْذِبِينَ وَأَزَالَ عَنْهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالنِّعَمِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَتَغْيِيرِهِمْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بَلْ يَبْقِيهَا وَيَزِيدُهُمْ مِنْهَا، أَنْ ازْدَادُوا لَهُ شُكْرًا حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، فَيَكْفُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ وَيَبْدُلُوهَا كُفْرًا فَيَسْلُبُهُمْ إِيَّاهَا وَيُغَيِّرُهَا عَلَيْهِمْ، كَمَا غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ وَالْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِهِ حَيْثُ لَمْ يِعَاقِبَهُمْ إِلَّا بِظُلْمِهِمْ، وَحَيْثُ جَذَبَ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ إِلَيْهِ بِمَا يَذِيقُ الْعِبَادَ مِنَ النِّكَالِ إِذَا خَالَفُوا أَمْرَهُ. اهـ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ﷻ فِي «الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ» (ص ٧٤):

مِنْ عَقُوبَاتِ الذُّنُوبِ أَنَّهَا تَزِيلُ النِّعَمَ وَتَحُلُّ النِّقَمَ، فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا رَفَعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ»، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٥٣]، فَأَخْبَرَ اللَّهُ

أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غَيَّرَ غَيَّرَ عليه جزاءً وفاقاً، وما كان ربك بظلامٍ للعبيد، فإن غَيَّرَ المعصية بالطاعة غَيَّرَ الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِّ وَّالٍ﴾ [سورة الرعد: ١١] اهـ.

قلت: ونعم الله كثيرة لا تحصى، لكن نضرب مثلاً بعبدٍ أنعم الله عليه بالهداية والتمسك بالكتاب والسُّنة، وزاده نعمة طلب العلم النافع والزهد عما في أيدي الناس من حطام الدنيا، فضاق هذا العبد فمل هذه النعمة فزاع، فأزاع الله قلبه، وأبدله الله بتلك النعمة نقمة وبلية، من الهلع والجري وراء الدنيا والتنكر للخير وأهله، والتردي في المعاصي والمنكرات، كل ذلك بسبب تغييره وعدم صبره وإخلاصه في طلب هذا العلم العزيز.

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب "الفوائد" (١/ ٢٦٢): من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله عليه بها، واختارها له فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم، لجهله أنه خير له منها، وربّه برحمته لا يخرجّه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة وسخطها وتبرّم بها واستحكم ملكه لها، سلبها الله إياها، فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بينهم ما كان فيه وصار إليه، واشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورشدًا ألهمه أن ما هو فيه من نعمة عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته، عاجزًا عنها، مفوض إلى الله طالبًا منه حسن اختياره له.

وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله، فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة، وهي أعظم نعم الله عليه.

فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه وهم مجتهدون في دفعها وردّها جهلاً وظلمًا، فكم سعت إلى أحدهم من نعمه، وهو ساعٍ في ردها بجهدّه، وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعها وزوالها بظلمه وجهله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١].

فليس للنعم أعدى من نفس العبد، فهو مع عدوه ظهير على نفسه، فعدوه يطرح النار في نعمه، وهو ينفخ فيها فهو الذي مكّنه من طرح النار، ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتد ضرामها استغاث من الحريق، وكان غايته معاتبة الأقدار.

وعاجز الرأي مضياغ لفرصته حتى إذا فات أمرًا عاتب القدرًا
٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم التغيير، إما منهم أو من الناظر لهم أو ممن هو منهم، بسبب كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد، بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة.

فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال ﷺ وقد سئل، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ».

٣- **ويقول الله ﷻ:** ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النحل: ١١٢] فبسبب تغييرهم غير الله أحوالهم، من اطمئنان وأمن إلى خوف وجوع، جزاء كفرهم بنعم الله عليهم.

قال ابن كثير رحمه الله: في تفسير سورة قريش بعدما ذكر امتنان الله على قريش بالأمن والتعظيم عند الناس، والإنعام عليهم بالتجارة والأموال، قال: ولهذا أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة **فقال:** ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [سورة قريش: ٣] أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرماً آمناً، وبيتاً محرماً...

ثم قال: ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه، كما **قال الله تعالى:** ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النحل: ١١٢].

٤- **وقال الله تعالى:** ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جُنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾﴾ [سورة سبأ: ١٥-١٧].

٥ - وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[سورة الصف: ٥] أي: بسبب زيغهم وانصرافهم عن الحق بقصدهم، أزاع الله قلوبهم عقوبة لهم.

٦ - وهذا الزيغ لا حيلة لهم في دفعه قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ

وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠].

الفوائد:

١ - شكر نعم الله يزيدها، وكفرها زوالها.

٢ - اللجوء إلى الله سبحانه في طلب الإعانة في شكر النعمة، وكان من دعاء النبي ﷺ كما علمه لمعاذ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

٣ - الجزاء من جنس العمل، فإذا غيّر الإنسان ما بنفسه غيّر الله عليه، إن كان إلى خير أو إلى شر فكذلك الجزاء.

٤ - الإيمان بقدر الله وحكمته سبحانه في كل أفعاله، وإذا رُئي عبد كان على خيرٍ وصلاحٍ رُئي في ضلالةٍ وغواية، فإن ذلك بسبب تغييره ما في نفسه وكفره بنعمة الله عليه، والله أحكم الحاكمين.

٥ - إذا أراد المسلمون تغيير أحوالهم السيئة التي يعيشونها من ذلة وتسلط لأعداء الإسلام عليهم، فعليهم تغيير أحوالهم السيئة، بترك المنكرات والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وعندها فإن الله لا يخلف وعده، فسيغير الله حالهم إلى عزّة ومنعه وتمكين في هذه الأرض.

السنة الثامنة والعشرون

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا

* هذه السنة ذكرها الله سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله: بعد أن ساق ذكر استمتاع الجن والإنس ببعضهم ببعض قال: يقول بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيلى بظالم
قال: ومعنى الآية كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم لبعض جزاء على ظلمهم وبغيهم. اهـ.

قال القرطبي رحمه الله: قال ابن زيد: نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويؤذله، فهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالماً آخر، ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية، والتاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم. اهـ.

قال السعدي رحمه الله: معنى الآية: من سُنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزّه إلى الشر ويحثه عليه ويزهده في الخير، ويُنفّر عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها البليغ خطرها والذنب ذنب الظالم فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة وولي عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده على وجه غير مأجور فيه ولا محتسبين، كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا أصلح الله رعاتهم. اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمته الله كلاماً نفيساً في "مجموع الفتاوى" في كتاب الجهاد، في هذا الباب أنقله بنصه لعظيم فائدته:

قال رحمته الله كما في "مجموع الفتاوى" (٢٨/٤٦٣): كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين فردهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم، وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة. وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم.

وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه، وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى يوم دخلت مصر عقيب العسكر واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه.

فلما ثبت الله للوب المسلمين صرف العدو جزاء منه وبيانا أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل وإن تباعدت الديار.

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج وألقى بينهم تباغضا وتعاديا كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق. بل من طالعتها علم صحة ذلك كما ذكره أهل المغازي. مثل عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة وسعيد بن يحيى الأموي ومحمد بن عائذ ومحمد بن إسحاق والواقدي وغيرهم. ثم تبقى بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم مضافا إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك. وثبت المسلمون بإزائهم.

وكانوا أكثر من المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة وأذلهم الله تعالى فلم يقدموا على المسلمين قط. وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره فجرت مناوشات صغار كما جرى في غزوة الخندق حيث قتل علي بن أبي طالب عليه السلام فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق هو ونفر قليل من المشركين، كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين، وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم، وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات. وبعضهم في جزيرة فيها، فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم وخالطوهم؛ وأصاب المسلمون بعضهم.

وقيل: إنه غرق بعضهم. وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب بعد أن جرى - ما بين عبور قازان أولا وهذا العبور - رجفات ووقعات صغار وعزمتنا

على الذهاب إلى حماة غير مرة لأجل الغزاة؛ لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا. وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماة ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق وعزموا على لقائهم ونالوا أجرا عظيما.

وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمانات؛ إما ثلاثة أو أربعة. فكان من المقدر: أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل (تيزين) و(الفوعة) و(معرة مصرين) وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي.

وقيل: إن كثيرا من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم؛ بسبب الرفض وأن عند بعضهم فرامين منهم؛ لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالما بلي به.

وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة

الأنعام: ١٢٩].

وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب من أهل سيس والإفرنج. فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيههم وهي الحصون - ويقال للقرون: الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب. وقد فتح الله تلك البلاد. ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنتفتح أرض العراق وغيرها وتعلو كلمة الله ويظهر دينه؛ فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس. وخرجت عن سنن العادة. وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين وعنايته بهذه الأمة وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين بعد أن كاد الإسلام أن ينشلم وكر العدو كرة...

إلى أن قال رحمته : وانقطعت الأسباب الظاهرة. وأهطعت الأحزاب القاهرة وانصرفت الفئة الناصرة وتخاذلت القلوب المتناصرة وثبتت الفئة الناصرة وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة وأظهر على الحق آياته الباهرة وأقام عمود الكتاب بعد ميله وثبت لواء الدين بقوته وحوله وأرغم معاطس أهل الكفر والنفاق وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق.

الفوائد:

- ١ - الابتعاد عن الظلم حاكماً كان أو محكوماً فإنه مهديد بأن يسלט الله عليه من هو أظلم.
- ٢ - معرفة حكمة الله في ذلك، وأن ذلك دفاع عن المؤمنين، وكما جاء في قراءة: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ﴾، وإنها طريق لتمكين أهل الحق في الأرض، ونصرهم على من ظلمهم، ويترتب على ذلك أن يعلم المؤمن فضل الله عليه فيشكره.
- ٣ - عدم الاغترار بولاية الظالمين، قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [١٦٦] مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٦٧﴾ [سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

قال الفضيل بن عياض رحمته : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف، وانظر فيه متعجباً.

- ٤ - الحذر من المعاصي فإنها تجر الذلة والويلات، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٩].

السُّنَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعَشْرُونَ

الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

* هذه السنة العظيمة التي تواترت أدلتها من الكتاب والسنة على أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر **قال تعالى:** ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٧٠]، **وقال تعالى:** ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ [سورة الزلزلة: ٧-٨].

👉 والمقصود بذلك أن يقابل غرض العبد ونتيجة عمله بجنسه من الله **عز وجل**، ومن الأمثلة على ذلك:

١ - تيسير الله لمن يسر على عباده: **قال تعالى:** ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

ويقول النبي **ﷺ**: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» أخرجه مسلم عن أبي هريرة **رضي الله عنه**.

قال الأمير الصنعاني **رحمته الله:** وهذه الجمل المذكورة في الحديث دلت على أنه سبحانه يجازي العبد بفعله، فمن ستر ستر عليه، ومن يسر يسر عليه، ومن أعان أعين.

٢- نصر الله للعبد منوط بنصرته للدين والحق: **قال تعالى:** ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُخْلِفْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٧].

- فبين الله في هذه الآية أن الجزاء من جنس العمل، ولقد كتب الله على نفسه أنه ما من أحد ينصر دين الله والحق المنبثق عنه، إلا نصره الله، وأعانته، خاصة في وقت الفتن والشدة، **قال الله تعالى:** ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [سورة المجادلة: ٢١]، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [سورة غافر: ٥١]

٣- الضمان من الله لمن تعدى بخيره على غيره، أن يرزقه من جنس ما أنفق، ويزيده فيه، وبالمقابل سلب الله النعمة عمن منعها مستحقها:

- ضمن الله لمن تعدى بخيره على غيره، أن يرزقه من جنس ما أنفق، ويزيده فيه، **قال تعالى:** ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٩]، **وقال تعالى:** ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]، وقال عليه السلام في الحديث القدسي: «أنفق أنفق عليك». متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا» - قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: «يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ - بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ». متفق عليه.

قال ابن القيم رحمه الله: ويكفي في فضل النفع المتعدي بالمال، أن الجزاء عليه من جنس العمل، فمن كسا مؤمناً كساه الله من حلل الجنة، ومن أشبع جائعاً

أشبعه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمآنًا سقاه الله من شراب الجنة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

* وبالمقابل فإن من منع حق الله وبخل بما آتاه الله سلبه الله هذه النعمة **قال**

الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ [سورة القلم: ١٧-٢٠].

فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حظه الذي كفله الله له، عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية.

* ثم بين الله أن حكمه هذا سنة جارية في خلقه، **فقال تعالى:** ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ

وَالْعَذَابُ﴾ [سورة القلم: ٣٣]، أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله

وأنعم به عليه، ومنعه حق المسكين، والفقير وذوي الحاجات

٤- الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا، والمكر

والاستهزاء بمن يمكر ويستهزئ بالصالحين:

قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [سورة الطور: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الطارق: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا

مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة

البقرة: ١٤-١٥]، وهذه من الله بهم على وجه الانتقام، والمقابلة بالعدل والمجازاة، وهي صفة كمال لله سبحانه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله: هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً. اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله القاعدة نفسها فيقول: وأما الاستهزاء والمكر، بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر، فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق، فهو ذنب محرم، وأما إذا كان جزاء على فعل من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حسناً.

٥- تسليط الظالم على مثله: قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٩].

قال الرازي رحمه الله: الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين، فالله يسלט عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم، وقد قيل:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيلى بظالم

٦- استئصال من أراد إيذاء رسل الله وأوليائه: **قال تعالى:** ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [سورة غافر: ٥].

قال ابن كثير رحمه الله: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، فأخذتهم، أي: أهلكتهم على ما صنعوا من الآثام والذنوب العظام.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣) وَلَنُصَبِّحَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)﴾ [سورة إبراهيم: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [سورة محمد: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيْلًا﴾ (٧٦) سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيْلًا (٧٧)﴾ [سورة الإسراء: ٧٦-٧٧].

ويقول تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِيْنَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيْلًا﴾ (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا

ثَقِفُوا أُخْذُوا وَقَتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾.

* ولذلك شرع الله أن يعامل المسلمون أعداءهم بجنس ما يعاملونهم به، فإن قتلهم وجب قتلهم، وإن أخرجوهم فعليهم إخراجهم، تشبهاً بسنة الله فيهم، **قال الله تعالى:** ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا إِنْكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ [سورة البقرة: ١٩٠-١٩١].

٧- معاملة أهل الفضل بالفضل: **قال تعالى:** ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [سورة الرحمن: ٦٠] **وقال تعالى:** ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [سورة الشورى: ٢٣] **وقال تعالى:** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس: ٢٦] **وقال تعالى:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٧].

٨- ترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه: **قال تعالى:** ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ [سورة طه: ١٢٤-١٢٦]. **وقال تعالى:** ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِعِبَآوَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥١]، **وقال تعالى:** ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة

السجدة: ١٤] **وقال تعالى:** ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ

مَنْ نَصْرِينَ﴾ [سورة الجاثية: ٣٤].

٨- الميل والزيغ عن الحق، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

[سورة الصف: ٥].

قال السعدي رحمه الله: أي لما انصرفوا عن الحق بقصدهم أزاع الله قلوبهم عقوبة لهم، على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة الصف: ٥]، أي: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم لا لهم قصد في الهدى.

وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلمًا منه ولا حجة لهم عليه، إنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه.

قال الساطبي رحمه الله في "الاعتصام" (١/ ٥١): جاء عن أبي غالب واسمه حزور، قال: كنت بالشام فبعث المهلب سبعين رأسًا من الخوارج، فنصبوا على درج دمشق، وكنت على ظهر بيت لي، فمر أبو أمانة عليه السلام فنزلت فاتبعته، فلما وقف عليهم دمت عيناه، وقال: سبحان الله ما يصنع الشيطان ببني آدم، قالها ثلاثًا، كلاب جهنم، كلاب جهنم، شر قتلى تحت ظل السماء، ثلاث مرات، خير قتلى من قتلوه، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، ثم التفت إلي وقال: يا أبا غالب إنك بأرض هم بها كثير، فأعاذك الله منهم. قلت: رأيتك بكيت حين رايتهم؟ قال: بكيت رحمة حين رايتهم كانوا من أهل الإسلام، هل تقرأ سورة آل

عمران؟ قلت: نعم، فقراً: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [سورة آل عمران: ٧]، حتى بلغ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٧]، وأن هؤلاء كان في قلوبهم زيغ فزيغ بهم. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧].

قال السعدي رحمه الله: يعني أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة، تنبئهم بما في قلوبهم إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها: ﴿تَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧] جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ [سورة التوبة: ١٢٧]، متسللين وانقلبوا معرضين فجازاهم الله بعقوبة من جنس عمله فكما انصرفوا عن العمل صرف الله قلوبهم أي صدها عن الحق وخذلها. اهـ.

٩- تتبع عورات المسلمين، جاء عند أبي داود بسند حسن، عن أبي بَرَزَةَ الأسلمي رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ». فكان جزاؤه من جنس عمله وبالله التوفيق.

١٠- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ». رواه الترمذي.

قال ابن القيم رحمه الله في "مفتاح دار السعادة" ص (٧١): وقد تظاهر الشرع
والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه
ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك.
والأمثلة على هذه السنة كثيرة جدا.

السُّنَّةُ الثَّلَاثُونَ

اِبْتِئَاءُ اللَّهِ بَعْضَ الصَّالِحِينَ بِفَسَادِ الْأَقَارِبِ وَإِذَائِهِمْ

* هذه سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ أَنْ يَبْتَلِيَ بَعْضَ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ بِفَسَادِ قَرِيبِهِ، لِيَبَيِّنَ اللَّهُ لَهُ وَلِلنَّاسِ أَنَّ الْأَمْرَ لَهُ سَبْحَانَهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَمْلِكُ هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ، وَأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَنَّ النَّاسَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [سورة التحريم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ [سورة هود: ٤٢-٤٣]، فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّ امْرَأَةَ نُوحٍ وَابْنَهُ كَانَا مِنَ الْكَافِرِينَ، وَكَذَلِكَ امْرَأَةُ لُوطٍ، وَهُمَا نَبِيَّانِ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١١٤].

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَزَرَ وَالِدَ إِبْرَاهِيمَ يَلْقَى فِي النَّارِ، وَقَدْ بَذَلَ إِبْرَاهِيمَ وَسَعَهُ مَعَهُ فِي التَّلَطُّفِ لَهُ وَدَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ الْأَمْرَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

ويقول الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ في شأن عمه أبي طالب عندما جاءه النبي ﷺ في مرض موته يدعوه إلى أن يقول لا إله إلا الله، ولكن كان آخر كلامه هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. **قال الله تعالى:** ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [سورة التوبة: ١١٣]، فهذا عمه أبو طالب الذي دافع عن النبي ﷺ، وأحاطه برعايته وحماه من المشركين، يشاء الله أن يموت على الشرك، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

وهكذا يُبتلى كثير من الصالحين بفساد الأقارب، ولكن لا يعني ذلك ترك النصيحة والتربية والدعوة إلى الله، وأن يبذل جهده في تربية أبنائه، ومن ولاه الله أمرهم وإحاطتهم بنصحه، فإذا أراد الله فساد أحدهم فله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة يونس: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ

حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

السنة الواحدة والثلاثون

الأسباب والمسببات

* هذه السنة الإلهية تكاد تكون أعظم السنن الإلهية، فإن لها ارتباطاً كبيراً ببقية السنن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" (٤٣/٨):
 فإن الله سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه وهو قد جعل للأشياء أسباباً،
 تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب كما يعلم أن هذا يولد له، بأن يطاء
 امرأة فيحبلها، فلو قال هذا إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطاء كان
 أحق، لأن الله علم أن سيكون بما سيقدره من الوطاء.
 وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويذرّه من الحب،
 فلو قال إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلاً ضالاً، لأن الله علم
 أن سيكون بذلك.

وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل وهذا يروى بالشرب وهذا يموت
 بالقتل فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها.
 وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيداً في الآخرة وهذا شقيّاً في الآخرة، قلنا
 ذلك لأنه يعمل بعمل الأتقياء، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل، فلو قال هو شقي
 وإن لم يعمل كان باطلاً، لأن الله لا يدخل النار أحداً إلا بذنبه، كما **قال تعالى:**
 ﴿لَا تَلِدْنَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٨٥].

فأقسم أنه يملؤها من إبليس وأتباعه، ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى،
 ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمل حتى يعمل.

ولهذا سئل النبي ﷺ عن أطفال المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»
يعني أن الله يعلم ما يعملون لو أنهم بلغوا، وقد ثبت أنهم في القيامة يختبرون
فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار. فيظهر ما علمه فيهم من الطاعة
والمعصية، وكذلك الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به وطاعته، فمن قدر أن
يكون منهم ييسره للإيمان والطاعة، فمن قال أنا ادخل الجنة سواء كنت مؤمناً
أو كافراً إذا علم أنني من أهلها كان مفترياً على الله في ذلك. فإن الله إنما علم أنه
يدخلها بالإيمان، فإذا لم يكن معه إيمان لم يكن هذا هو الذي علم الله أنه يدخل
الجنة، بل من لم يكن مؤمناً بل كان كافراً فإن الله يعلم أنه من أهل النار، لا من
أهل الجنة. ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله، وغير ذلك من الأسباب.

* ومن قال أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالا على القدر، كان مخطئاً أيضاً، لأن الله
جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهدايته ونصره
ورزقه، وإذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله
وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى
المواقيت، فليس في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب
والمسببات.

دلينا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب
أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع،
ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب.

فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النبات، بل لابد
من ريح مربية بإذن الله، ولا بد من صرف الانتفاء عنه، فلا بد من تمام الشروط

وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره. وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من أنزل ولم يولد له بل لا بد من أن الله شاء خلقه، فتحبل المرأة وتربيته في الرحم وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع. وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب. ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ». متفق عليه عن أبي هريرة ؓ.

وقد قال الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: ٣٢] فهذه باء السبب أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال اشتريت هذا بهذا، أي ليس العمل عوضاً وثمناً كافياً في دخول الجنة بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات. اهـ.

وقد بين الله سبحانه هذه السنة وأمثلتها في آيات عديدة في كتابه الكريم، فمنها ما يتعلق بالجزاء الأخروي:

١ - قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَاسَمْتُمْ﴾ [سورة النساء: ١٤٧].

هذه الآية دالة على اعتبار سنة الأسباب حتى في الجزاء الأخروي، إذ لا عذاب بكفران، فإذا انتفى السبب وهو الكفر فلا عذاب بل هو نعيم ودخول في معية المؤمنين.

٢ - قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المرسلات: ٤٣].

٣- وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [سورة

الحاقة: ٢٤].

٤- وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٨١ -

١٨٢].

٥- وقال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءَ

وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النبأ: ٢٤-٢٦].

٦- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٥].

ومنها ما يتعلق بأمر الرزق:

٧- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾

[سورة الملك: ١٥].

٨- عن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ

لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا». رواه الترمذي. فقد أثبت

لها في الحديث رواحًا، وغدوًا لطلب الرزق مع توكلها على الله.

* وكذلك في الآيات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه وأوليائه الصالحين،

فإن سنة الأسباب كذلك لا تتغير.

٩- قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ

عَيْنًا﴾ [سورة البقرة: ٦٠].

قال القرطبي رحمه الله: وقد كان الله قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب، ولكن أن يربط الأسباب بالمسببات حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم.

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ الْجَذْعَ النَّخْلَةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٥]: **قال الطبرسي:** وفي أمرها بالهز إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب، وهو لا ينافي التوكل، وما أحسن ما قيل:

ألم تر أن الله أوحى لمريم
ولو شاء الله أحنى الجذع من غير هزه
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
إليها ولكن كل شيء له سبب

١١ - وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّكُمْ بِالْفِ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأنفال: ٩-١٢].

وقد سئل تقي الدين السبكي: عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟

فأجاب: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وستتها التي أجزاها الله في عباده. اهـ.

* وقد بين الله لخلقه أن العبرة ليست بالأمان، وإنما هي ببذل السبب بالإيمان والعمل الصالح، فقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

السنة الثانية والثلاثون

مَا كَانَ الرَّقُّ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ

* هذه السنة جاءت مبينة في عدة أدلة منها:

١ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّقَّ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ». رواه مسلم

٢ - عن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّقَّ وَيُعْطِي عَلَى الرَّقِّ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعَنْفِ وَمَا لَا يُعْطَى عَلَى مَا سِوَاهُ». رواه مسلم.

٣ - عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حُرِمَ الرَّقُّ حُرِمَ الْخَيْرِ أَوْ مَنْ يُحْرَمِ الرَّقُّ يُحْرَمِ الْخَيْرِ». رواه مسلم.

قال النووي رحمته الله تعالى: في هذه الأحاديث فضل الرقيق، والحث على التخلق وذم العنف، والرقيق سبب كل خير.

ومعنى «يُعْطَى عَلَى الرَّقِّ»: أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره. **وقال القاضي:** معناه يتأتى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره. اهـ.

وقد أخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَهْلُ بَيْتِ الرَّقِّ إِلَّا نَفْعُهُمْ». صححه العلامة الألباني رحمته الله في «الصحيحة» برقم (٩٤٤).

فهذه سنة من سنن الله أن يجعل البركة والنفع في أهل الرفق، وأن من حُرِمَ الرفق فقد حرم الخير، وهذا شيء ملاحظ ملموس في الحياة، فإن العنف وفضاظة القلب سبب للنفور، **قال الله تعالى:** ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ لَكُنْتُمْ أَفْئِسَ كُفْرًا مِمَّا عَزَمْتُمْ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصُونَ عَلَيْهِمْ بِأَلْمُؤْمِنِينَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

وامتدح الله رسوله بأنه رحيم بالمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

ودعا النبي ﷺ لصاحب الرفق فقال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا، فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به». رواه مسلم (١٨٢٨) عن عائشة رضي الله عنها.

فليشر صاحب الرفق بالخير والبركة والمعونة من الله تعالى، وينبغي لنا أن نعلم أن الرفق لا يعني التساهل في دين الله والمعاملة على حساب دين الله، وعدم التصدي للكافرين والمنافقين وأهل الأهواء.

فإن الذي أمر بالرفق وحث عليه، هو الذي **قال:** ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة التوبة: ٧٣].

وهو الذي **قال** في المتعدين لحدود الله كالزناة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [سورة النور: ٢] وهو الذي **قال:** ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [سورة التوبة: ١٢٣].

وأحاديث رسول الله ﷺ شاهدة بهذا المعنى في مواضع كثيرة، فكل شيء يقدر بحسبه، فالرفق في مكانه والغلظة في مكانها، وذلك في حدود الكتاب

والسنة. والموفق من وفقه الله لأن يجعل كل شيء في موضعه، فلا يحمله رفقته على التخاذل والتنازل عن دينه والجبن عن كلمة الحق، ولو كانت على أقرب قريب، **قال الله تعالى:** ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة النساء: ١٣٥].

قال سفيان الثوري رحمه الله لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور في مواضعها الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه والوسط في موضعه. وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفضاظة بالرفق. كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع
أه من "نصرة النعيم" [صفة الرفق].

السنة الثالثة والثلاثون

مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ فَيُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا

* هذه سنة من سنن الله في خلقه، فإن الله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فانه إذا تحابَّ اثنان في الله، ثم حصل بينهما التفرق والخلاف فإن ذلك يكون بسبب ذنب ارتكبه أحدهما.

وهذا نص حديث رواه البخاري في "الأدب المفرد" عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما توادَّ اثنان في الله فيفترق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما». وهو في "صحيح الجامع" (٧٨٧٩).

قال النابغ رحمته الله في "فيض القدير": فيكون التفريق عقوبة لذلك الذنب. **ولهذا قال مرسى الكاظم رحمته الله**: إذا تغير صاحبك عليك فاعلم أن ذلك من ذنب أحدثته، فتب إلى الله من كل ذنب يستقيم لك وده.

قال الزبي رحمته الله: إذا وجدت من إخوانك جفاء فتب إلى الله، فإنك أحدثت ذنباً وإذا وجدت منهم زيادة ودّ، فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى. اهـ.

والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى: ٣٠].

فهذه سنة من سنن الله لا تتغير ولا تتبدل، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بتفقد أحواله والتوبة إلى الله من جميع الذنوب، واللجوء إليه سبحانه في جميع الأمور، وليصلح سريره فإن الله عليم بذات الصدور.

السنة الرابعة والخامسة والسادسة والثلاثون

مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ - وَمَا ظَلَمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا - وَمَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ

هذه ثلاث سنن عظيمة جاءت موضحة في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثَلَاثَةٌ أَقْسَمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالٌ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظَلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا». الحديث بطوله رواه الترمذي وبعضه عند مسلم، واقتصرنا على موضع الشاهد منه.

فالسنة الأولى في هذا الحديث: «مَا نَقَصَ مَالٌ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ» تؤيدها أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٩].

٢ - وقال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٦].

٣ - وقال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

٤ - وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

[سورة البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٥].

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا؛ وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». رواه البخاري، ومسلم.

٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفَقَ عَلَيْكَ».

٧ - عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «لَا تُوَكِّي فَيُوكَى عَلَيْكَ». وفي رواية: «أَنْفَقِي أَوْ أَنْفَجِي، أَوْ أَنْضَحِي، وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِي اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهُ عَلَيْكَ». رواه البخاري، ومسلم. وانفحي وانضحي، كلاهما بمعنى واحد.

٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ لِمَنْ يَصِلُهُ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ ﷻ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا قَلَّةً». رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وهو في «الصحيحة» (٢٢٢١).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة وهذه الأدلة تبين أن الصدقة لا تنقص المال، بل إنها تزيده وتنميها، فإن الله وعد بذلك ووعدته الحق، والله سبحانه له خزائن السموات والأرض وخزائنه ملاءى، وهو يضاعف لمن يشاء أضعافاً كثيرة.

والسنة الثانية في هذا الحديث: «وَلَا ظِلْمَ عَبْدٍ مَظْلَمَةٍ صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا» تؤيدها أدلة من الكتاب والسنة في عاقبة الصبر الحميدة وفي التواضع وكظم الغيظ، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة، والعفو والصفح:

- ١ - **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠].
- ٢ - **وقال تعالى:** ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٥].
- ٣ - **وقال تعالى:** ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ [سورة الشورى: ٤٣].
- ٤ - **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٣].
- ٥ - **وقال تعالى:** ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة فصلت: ٣٤] **وقال تعالى:** ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٦].
- ٦ - **وقال تعالى:** ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة النور: ٢٢].

- ٧ - **وقال تعالى:** ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤].
- ٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْقِطُهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ». رواه مسلم.

- ٩ - عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ». رواه الترمذي بسند حسن.

١٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدُ اللَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ». رواه مسلم.

فهذه الأدلة وما كان في معناها تبين أن الله سبحانه يرفع ويُعزُّ من صبر على الظلم، ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، ويتأكد ذلك في حق من كان قادرًا على أن ينفذ في ظالمه مقابل ظلمه، لكنه صبر وكظم غيظه، **قال الله تعالى:** ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ أَمْلَكِ تُؤْتِي أَمْلَكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ أَمْلَكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦].

قال السيخ ابن عيمين رحمته الله في «شرح رياض الصالحين»: عند حديث (٥٥٦): قوله ﷺ «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًا» إذا جنا عليك أحد أو ظلمك في مالك أو في بدنك أو في أهلك أو في حق من حقوقك، فلأن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه وأن تأخذ بحقوقك، وهذا لك **قال تعالى:** ﴿فَمَنْ أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤]، **وقال تعالى:** ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

ولا يلام الإنسان على ذلك، لكن إذا همَّ بالعفو قالت له نفسه الأمانة بالسوء: إن هذا من الضعف والذل، كيف تعفو عن شخص جنا عليك أو اعتدى عليك؟ وهنا يقول الرسول ﷺ: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًا» والعز ضد الذل، وما تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذلت أمام من اعتدى عليك، فهذا من خداع النفس الأمانة بالسوء، ونهيها عن الخير، فإن الله يشيك على عفوك هذا عزًا ورفعةً في الدنيا والآخرة. اهـ.

والسنة الثالثة في هذا الحديث: «وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-»: تؤيد هذه السنة أدلة كثيرة في التعفف وعدم سؤال الناس.

١ - **قال الله تعالى:** ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣].

٢ - عن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي؛ ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى». رواه البخاري، ومسلم.

٣ - عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِرَّةٌ لَحْمٍ». رواه البخاري ومسلم.

٤ - عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ». رواه مسلم.

٥ - عن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ». رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن.

قال السيغ ابن عبيد رحمته الله عند هذه الأحاديث من «شرح رياض الصالحين»: ففي هذا دليل على أن سؤال الناس بلا حاجة من كبائر الذنوب وأن من أنزل حاجته وفاقته بالناس، فإنه لا تقضى حاجته لأن من تعلق شيئاً وكل

إليه، ومن وَّكَّلَ إلى الناس أمره فهو خائب لا تقضى حاجته، ويستمر دائماً يسأل ولا يشبع ومن أنزلها بالله ﷻ واعتمد على الله وتوكل عليه وفعل الأسباب التي أمر بها فإنه يوشك أن تقضى حاجته؛ **لأن الله سبحانه قال:** ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ^٤ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴿٥﴾ [سورة الطلاق: ٣].

السنة السابعة والثلاثون

وَجَعَلَتِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي

* هذه السنة وهي أن كل صاحب بدعة ومعصية، فإنه ذليل قد جاءت بها الأدلة من الكتاب والسنة.

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٢].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أعقبهم الله ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفتريين، نائلة لكل من افتري بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشد متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري رحمه الله: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطققت بهم البراذين، وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٢] فقال: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْشِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة يونس: ٢٧].

٣ - وروى الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي

تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ». وهو في «صحيح الجامع» (٣١٥٢).

قال النّادى رحمه الله في «فيض القدير»: «وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ» أي الهوان والخسران. «وَالصَّغَارُ» أي: الضيم على من خالف أمري، فإن الله تعالى خلق خلقه قسمين، عليّة وسفلة وجعل عليين مستقرّاً لعليه وأسفل سافلين، مستقرّاً لسفله. وجعل أهل طاعته وطاعة رسوله الأعلين في الدارين، وأهل معصيته الأسفلين فيها والذلة والصغار، وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره. فالعز لأهل طاعته ومتابعيه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] وعلى قدر متابعته تكون العزة والكفاية والفلاح. اهـ.

وبالمقابل فإن الله يعزُّ أهل طاعته ويدفع عنهم وينصرهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (١٨/١٦٧) طبعة دار

الوفاء:

فرسول الله ﷺ مع ما كان المشركون يسعون في أذاه بكل طريق، كان الله يدفع عنه ويعزه ويمنعه وينصره، من حيث كان أعزّ قريش ما منهم إلا من كان يحصل له ما يؤذيه ويهينه من لا يمكنه دفعه.

إذ لكل كبيرٍ كبيرٍ يناظره ويناويه ويعاديه، وهذه حال من لم يتبع الإسلام يخاف بعضهم بعضاً، ويرجو بعضهم بعضاً، وأتباعه الذين هاجروا إلى الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الإكرام والعز.

والذين هاجروا إلى المدينة كانوا أعز وأكرم، والذي كان يحصل لهم من أذى الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلاً من الإيمان وحلاوته ولذته، ما يحتملون

به ذلك الأذى، وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذى والشر أضعاف ذلك من غير عوض، لا آجلاً ولا عاجلاً، إذ كانوا معاقبين بذنوبهم.

وكان المؤمنون ممتحنين ليخلص إيمانهم وتكفر سيئاتهم، وذلك أن المؤمن يعمل لله، فإن أؤذي احتسب أذاه على الله، وإن بذل سعيًا أو مالًا بذله لله فاحتسب أجره على الله. اهـ.

السُّنَّةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ

كُلُّ مَنْ أَمْتَنَعَ أَنْ يَذِلَّ لِلَّهِ أَوْ يَبْذِلَ مَالَهُ فِي مَرْضَاتِهِ لَا بُدَّ أَنْ
يَذِلَّ لِلْحَقِيرِ وَيَبْذِلَ مَالَهُ فِي مَرْضَاتِهِ

قال ابن القيم رحمته الله في "إغاثة اللفهان" (٢/ ١٩٤): قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه، فإنه فر من الموت لما كان يسوءها، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعصمه أحد من الله. وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه، وإذا كان هذا في مصيبة النفس فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله ينفقه في سبيل الله وإعلاء كلمته سلبه الله إياه أو قيص له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً أو آجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهنته، وعلى مخلقه وزره.

وكذلك من رفَّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم سلمة بن دينار رحمته الله: ما يلقي الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقي الذي يتقي الله من معالجة التقوى، واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه

فصيره الله أذل الأذلين، وجعله الله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فسَّاق ذريته.

كذلك عبَّاد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله في مرضاته أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبة له، كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته. اهـ.

قلت: وكل من أنف أن يتواضع لشيخه ومعلمه ومن جعله الله سبباً في هدايته وتعليمه وتبصيره بالحق والهدى، واستكبر من قبول نصائحه واستعجل وأحب الظهور، وربما فارق شيخه وتنقصه في المجالس، فإن الله يصيره إلى من يهينه ويذله، ويبدله الله بالإكرام الذي كان يجده عند شيخه ومعلمه اهانة وذلاً.

وهذا شيء واقع مشاهد، فكم من طالب علم كان يسعى إليه ويطلب منه الخروج للدعوة إلى الله وللتعليم والناس في تلهف لسماع كلامه ومواعظه، بل إن بعضهم ليتعب من كثرة المطالبين له والراغبين فيه وفي علمه، فيتنكر للخير الذي هو فيه ويؤزره الشيطان، وتعجبه نفسه، ويفتئت على معلمه ومربيه.

👉 فما هي إلا أيام حتى يصبح غريباً بين الناس، وتراه يحرص أن يعود الناس إليه، ولكنهم يتولون عنه، فيتعب في مداراتهم وترغيبهم، وهيهات، وبيتلى بمن يهينه وهو صابر على هذا الهوان، إما من أجل دنيا لا يريد أن تزول عنه،

وأما من أجل أن يقضي غرضه بالكلام على من يعاديه، فيتحمل الهوان من أجل ذلك ﴿اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: ١٨].

السنة التاسعة والثلاثون

حُكْمُ اللَّهِ فِي جَمِيعٍ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ

* هذه السنة جاءت مبينة في عدة مواضع من الكتاب والسنة منها:

١ - **قوله تعالى:** ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [٨٤] فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [٨٥] [سورة غافر: ٨٤-٨٥].

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [سورة غافر: ٨٤]، أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [سورة غافر: ٨٤]، أي وحدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت لكن حيث لا تُقال العثرات ولا تنفع المَعذرة وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق. **قال الله تعالى:** ﴿ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩١]، أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى ﷺ دعاءه عليه، حين قال: ﴿ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس: ٨٨].

وهكذا **قال تعالى** هاهنا: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر: ٨٥] أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب، أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وقال: حديث حسن: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ» أي: فإذا بلغت الروح الحنجرة وغرغرت وعاین الملك، فلا توبة حينئذٍ؛ ولهذا **قال:** ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر: ٨٥] اهـ.

٢- وقال الله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَاَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [سورة ص: ٣]، أي: أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاينة العذاب ليس وقت نداء، أي: فهو وقت لا ملجأ فيه ولا مفر من الهلاك بعد معاينته.

٣- وقال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۖ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩-١٠١].

٤- وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۖ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَتَرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ۖ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٢-١٤].

٥- وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [سورة النساء: ١٨].

* وقد استثنى الله من عموم هذه السنة قوم يونس عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة يونس: ٩٨].

قال السعدي رحمه الله عند تفسير هذه الآية بعد أن ذكر الأدلة على هذه السنة وهي عدم الانتفاع بالإيمان عند معاينة العذاب، قال: والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب، والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران، وقوم يونس مستثنون من العموم

السابق. ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) **إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** (١٤٠) **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ** (١٤١) **فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** (١٤٢) **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** (١٤٣) **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (١٤٤) **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ** (١٤٥) **وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ** (١٤٦) **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ** (١٤٧) **فَأَمَنُوا فَمَعَّغْنَهُمُ إِلَى جَيْنٍ** (١٤٨) ﴿[سورة غافر: ٨٤-١٤٨].

ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس فإن الله عَلِمَ أن إيمانهم سيستمر وقد استمر فعلاً. اهـ.

السنة الأربعون

مَنْ تَرَكَ لِلَّهِ شَيْئًا عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ

* جاء بيان هذه السنة في أدلة من الكتاب والسنة منها:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُطَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ [سورة ص: ٣٠-٣٦].

قال السعدي رحمه الله تعالى: لما عُرِضَتْ عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندمًا على ما مضى منه وتقربًا إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب الله عن حب غيره. ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [سورة ص: ٣٢] وضمَّن: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [سورة ص: ٣٢]، معنى: أثرت حب الخير، وهو المال عمومًا، وهو في هذا الموضع المراد الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [سورة ص: ٣٢] ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فطَفِقَ﴾ [سورة ص: ٣٣]، فرَدَّوَهَا. ﴿فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [سورة ص: ٣٣]، أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها...

ثم قال السعدي رحمه الله: من الفوائد المستفادة من هذه القصة، القاعدة المشهورة (من ترك شيئًا لله عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ)، فسلیمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبات للنفوس، تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك،

بأن سحر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد. اهـ
بتصرف.

٢- وروى الإمام أحمد في مسنده: عن رجل من الصحابة، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللَّهِ ﷻ إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ». وهو في «الصحیح المسند» للإمام الوادعي رحمه الله برقم (١٥٢٣).

وفي هذا الحديث بيان الشرط في تحقق هذا العهد العظيم، وهو أن يدع الشيء اتقاء الله ﷻ.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتُكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاتُكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَلَمْ يَعْمَلَهَا، فَاتُكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتُكْتُبُوهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ» رواه البخاري ومسلم. فكان عاقبة ترك السيئة خوفاً من الله، ومن أجل الله أن أبدلها الله بحسنة.

٤- عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْوَا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرَحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتَيْقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ،

فَفَرَّجْنَا عَنْ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَاَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَاْمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ، فَجَاءَنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أَجِلُّ لَكَ أَنْ تُقْضَى الْخَاتَمُ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَاِنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَاْفَرَّجْنَا عَنْ مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا»، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَتَمَرَّتْ أَجْرُهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَأْفَقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَاْفَرَّجْنَا عَنْ مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ». رواه البخاري ومسلم، فهؤلاء الثلاثة تركوا أشياء ابتغاء وجه الله فعوضهم الله بأن جعل هذه الأعمال مما يتوسل به إليه ونجاحهم من ذلك الموقف الذي قل أن ينجو من أصابه فمن ذا الذي يعلم أنهم في ذلك الغار، ومن ذا الذي يسمعهم غير الله، ومن ذا الذي يدفع عنهم تلك الصخرة العظيمة، ولكنه الله نجاحهم بتوسلهم إليه بتلك الأعمال التي أخلصوها له ﷺ.

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنٍ آدَمَ يَضَاعِفُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ؛ يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي». رواه البخاري، ومسلم.

* وتأمل كيف وعد الله الصائم الذي ترك طعامه وشرابه وشهوته لله، بأجرٍ أبهمه الله، وهو أكرم الأكرمين، دليل على عِظَم ذلك الأجر.

٦- عن معاذ بن أنس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ». رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني كما في «المشكاة» (٥٠٨٨). فهذا ترك إنفاذ هذا الغيظ مع قدرته على إنفاذه لله سبحانه فأبدله الله وعوضه بهذا الأجر العظيم يوم القيامة.

وعلى هذا فليبشر كل من ترك شيئاً لله ﻋَزَّ وَجَلَّ، بوعد الله الصادق في أن يبدله خيراً منه، فمن خرج مهاجراً إلى الله ورسوله من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وترك الملذات الدنيوية التي كان يتمتع بها في بلده، أن الله سيبدله خيراً من ذلك، بإقامة الدين والراحة النفسية والأجر الكبير في الآخرة **قال تعالى**: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٠٠].

وليبشر من ترك أصحاب السوء ومجالستهم، وترك المحرمات لله سبحانه، بأن الله سيخلفه خيراً ويبدله بأصحاب خير، وجلساء صلاح، وبركة في أهله وماله وولده. وليبشر من ترك الجري وراء الدنيا والهلح في جمع حطامها،

وتفرّغ لطلب العلم النافع علم الكتاب والسنة، بأن الله سيُخلّقه العلم النافع والعمل الصالح، وهذا لا تقوم له الدنيا بأسرها.

وليُبشر الصابر الذي يترك الانتصار لنفسه، والمراء غير المفيد، بأن الله سيعوضه بصبره ذلك خيراً ويزيده علماً، ويدافع عنه ويقض له من يدافع عنه، فهي سنة الله لا تتغير ولا تتبدل، وهذا بابٌ واسعٌ، ولكنه يحتاج إلى استحضار النية في أن يكون تركه لذلك الشيء هو ابتغاء وجه الله، والطمع فيما عنده، وأن لا يكون لأحدٍ من الناس في ذلك نصيباً، فإن الله سبحانه أغني الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معه فيه غيره تركه وشركه. نسأل الله الإخلاص في القول والعمل إنه جوادٌ كريم.

السنة الواحدة والأربعون مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ آذَنَهُ اللَّهُ بِالْحَرْبِ

جاءت هذه السُّنة مبيَّنة في عدد من الأدلة منها ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يُحِبُّ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبْتُهُ، فَكُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

قال الحافظ رحمته الله في «الفتح»: قال الفاكهاني: في هذا تهديدٌ شديد؛ لأن من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ، لأن من كره من أحب الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه. وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله.

وقال الطبري: لما كان وليُّ الله من تولى بالطاعة والتقوى، تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق، وصديق العدو عدو، فعدو وليِّ الله عدو لله، فمن عاداه كان كمن حاربه، ومن حاربه فكأنما حارب الله. اهـ.

وجاء الإشارة إلى دفاع الله عن أوليائه في آيات كثيرة منها:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

كفُورٍ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، قال السعدي رحمه الله: هذا إخبارٌ ووعد وبشارة من الله للذين امنوا، أن الله يدفع عنهم كل مكروه ويدفع عنهم كل شر، بسبب إيمانهم من شر الكفار وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه فمستقل ومستكثر. اهـ.

٢ - وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ [سورة الزمر: ٣٦].

٣ - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ [سورة

الطلاق: ٣]، فسنة الله ممن نال من أوليائه معلومة، فإن الله تولى في الدارين أهل معرفته، ولم يجعلهم كاهل نكرته، فمن تدبر كتاب الله وجد العقوبات التي حلت بأعداء أنبياء الله ورسله، وما فعل الله بهم.

وهكذا ورثة الأنبياء من العلماء وعلى رأسهم صحابة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، فإن التاريخ مليء بالحوادث والمصائب التي حلت بمن عادى صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطعن فيهم.

قال السوكاني رحمه الله في كتابه "قطر الولي" ص (٢٩٦) عند حديث: «من عادى

لي وليا فقد آذنته بالحرب» وهو يتحدث عما صنعتته الرافضة بالصحابة: فانظر أرشدك الله إلى ما صارت الرافضة لعنهم الله تصنعه بهؤلاء الذين هم رؤوس الأولياء، رؤوس الأتقياء، وقدوة المؤمنين وأسوة المسلمين، وخير عباد الله أجمعين، من الطعن واللعن والسلب والسب والشتم والثلم.

وانظر إلى أي مبلغ بلغ الشيطان الرجيم بهؤلاء المغرورين المجترئين على هذه الإعراض المصونة المحترمة المكربة، فيا لله العجب من هذه العقول الرقيقة والأفهام الشنيعة، والأذهان المختلة والإدراكات المعتلة، فإن هذا التلاعب الذي تلاعب بهم الشيطان يفهمه أقصر الناس عقلاً، وأبعدهم فتانة وأجمدهم فهماً، وأقصرهم في العلم باعاً وأقلهم اطلاعاً.

فإن الشيطان لعنه الله، سؤل لهم بأن هؤلاء الصحابة عليهم السلام، الذين لهم المزايا التي لا يحيط بها حصر، ولا يحصيها حد ولا عد، أحقّاء بما يهتكون من إعراضهم الشريفة، ويُجحدون من مناقبهم المنيقة، حتى كأنهم لم يكونوا هم الذين أقاموا عمدة الإسلام بسيوفهم، وشادوا قصور الدين برماحهم، واستباحوا الممالك الكروية، وأطفئوا الملة النصرانية والمجوسية، وقطعوا حبال الشرك من الطوائف المشتركة من العرب وغيرهم.

فيا هذا المجترئ على هذه الكبيرة، المتفحّم على هذه العظيمنتان، كان الحامل لك عليها والموقع لك في وبالها، هو تأميلك الظفر بأمرٍ دنيوي، وعرضٍ عاجل.

فاعلم أنك لا تنال منه طائلاً ولا تفوز منه بنقي ولا قطمير، فقد جربنا وجرب غيرنا من أهل العصور الماضية أن من طلب الدنيا بهذا السبب الذي فتح بابه الشيطان الرجيم وشيوخ الملاحدة من الباطنية والقرامطة والإسماعيلية، تنكّدت عليه أحواله وضائق عليه معاشه، وعاندته مطالبه وظهر عليه كآبة المنظر، وقراءة الهيئة وراثثة الحال، حتى يعرفه غالب من رآه أنه رافضي.

وما علمنا أن رافضياً أفلح في ديارنا هذه قط، وإن كان الحامل لك على ذلك الدين فقد كذبت على نفسك وكذبتك شيطانك وهو كذوب. اهـ.

ذكر ابن أبي الدنيا: عن أبي حاتم الرازي: عن حمد بن علي قال: كنا بمكة في المسجد الحرام قعوداً، فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض، فقال: يا أيها الناس اعتبروا فإنني كنت أتناول الشيخين وأشتُمهما، فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ أتاني آت فرفع يده فلطم وجهي، وقال: يا عدو الله يا فاسق، ألسنت تسبُّ أبا بكر وعمر عليهما السلام؟ فأصبحت وأنا على تلك الحالة.

واضح ابن أبي سبيبة في "مصنفه"، **والخالم** في "مستدركه"، بتحقيق شيخنا الوادعي بسند حسن، عن مصعب بن سعد: أن رجلاً نال من علي عليه السلام فدعا عليه سعد بن أبي وقاص عليه السلام، فجاءته ناقة أو جمل قتلتها، فاعتق سعد نسمة وحلف ألا يدعو على أحد.

وقد تكون العقوبة معجلة كحال هؤلاء، وقد تكون مؤجلة إلى يوم القيامة حيث لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

السنة الثانية والأربعون

وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله

بين الله هذه السنة وهي أنه جعل سبحانه أكثر من في الأرض هم الكفار والضالون عن سبيل الله، وهذا لحكمة يعلمها ﷺ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٣] والأدلة على ذلك:

١ - قال الله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ [سورة الأنعام: ١١٦].

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

وهذه الآية الكريمة تدل على أن أكثر الخلق ضالون مضلون، سواء من كانوا في عصر النبي ﷺ أو على العموم، مع الحرص الشديد من الأنبياء والصالحين والدعاة إلى الله على هدايتهم. قال السعدي رحمه الله: لأن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدت الموانع بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

٣- وقال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَدِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٣-٤]. قال ابن كثير رحمته الله:

السَّمَاءُ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ [سورة الشعراء: ٣-٤]. قال ابن كثير رحمته الله: قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَدِيعٌ نَفْسِكَ﴾ [سورة الشعراء: ٣]، أي مهلك نفسك مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ألا يكونوا مؤمنين، وهذه تسليية من الله لرسول الله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [سورة فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَدِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ إِنَّ لَّهُمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [سورة الكهف: ٦] ثم قال في آخر الآيات وما كان أكثرهم مؤمنين.

٤- وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٥] أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

٥- وقال تعالى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة يس: ٣٠].

٦- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سورة المؤمنون: ٤٤]، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٧] أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره. اهـ.

٧- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الصافات: ٧١].

٨- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ

إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٩].

٩- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة

هود: ١٧].

١٠- وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

[سورة يونس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

والآيات المبينة لهذه السنة كثيرة، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ بَيضاء فِي ثَوْرِ أَسْوَدَ أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرِ أَبْيَضَ». فعلم بهذه الأدلة أن أكثر من في الأرض هم الكفار والصادقون عن سبيل الله فلا يغتر مغتر بالكثرة فإنها ليست ميزاناً للحق والباطل.

قال السيخ محمد بن عبد الرهاب النجدي رحمته الله: في «كتاب التوحيد» عند

حديث ابن عباس «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهَيْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ...». الحديث.

قال في فوائد هذا الحديث: ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

قال السيغ ابن عسيمين رحمته الله معلقاً: فإن الكثرة قد تكون ضلّالاً، قال الله

تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة

الأنعام: ١١٦]، وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغتر الإنسان بكثرته، وظنّ أنه لن يُغلب أو أنه منصور، فهذا أيضاً سبب للخذلان.

فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضلّال، لا تغتر بهم، فلا تقل إن الناس على هذا، فكيف انفرد عنهم؟ كذلك أيضاً لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق.

فكلام المؤلف له وجهان:

الأول: أن لا تغتر بكثرة الهالكين فتهلك معهم.

الثاني: أن لا تغتر بكثرة الناجين، فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة، أي: لا نزهد بالقلة فقد تكون القلة خيراً من الكثرة. اهـ.

قال الإمام الساطبي رحمته الله في "الاعتصام" (١٦/١): وكان الإسلام في أوله وجدته مقاوماً، بل ظاهراً وأهله غالبين وسوادهم أعظم الأسود، فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين، فلم يكن لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم أو سلكه، ولكنه ابتدع فيه صولة يعظم موقعها، ولا قوة يضعف دونها حزب الله المفلحون، فصار على استقامة وجرى على اجتماع واتساق فالشاذ مقهور مضطهد إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود، وقوته إلى الضعف المنتظر، والشاذ عنه تقوى صولته ويكثر سواده، فافتضى سر التآسي المطالبة بالموافقة، ولا شك أن الغالب أغلب، فتكالبت على سواد السنة البدع والأهواء، فتفرق أكثرهم شيعاً. وهذه سنة الله في الخلق، أن أهل الحق في جنب أهل الباطل

قليل، لقوله تعالى قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سورة سبأ: ١٣].

ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قتلهم، وذلك حين يصير المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالثريب والتعنيف، كما كان أولاً يقام على أهل البدعة، طمعاً من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة. اهـ.

السنة الثالثة والأربعون

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية، يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر ابن كثير حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الإمام أحمد، أن النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ». ورواه مسلم من حديث سهل، ورواه البخاري عن أبي هريرة بنحوه.

الى أن قال: قال قتادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٦]، أي في قلوب أهل الإيمان.

ذَكَرَ لَنَا أَنَّ هَرَمَ بْنَ حِيَانَ رضي الله عنه كَانَ يَقُولُ: مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ عَثْمَانُ رضي الله عنه يَقُولُ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ. اهـ.

وقال السعدي رحمه الله: هذا من نعم الله على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أن يجعل لهم وُدًّا، أي محبةً وودادًا في قلوب

أوليائه وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ودٌّ، تيسّر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل. اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" (١ / ٤١): أن تعاملهم الله فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم، كما جاء في الأثر: (أَرْجُ اللهَ فِي النَّاسِ وَلَا تَرْجُ النَّاسَ فِي اللهِ وَخَفَ اللهُ فِي النَّاسِ وَلَا تَخَفِ النَّاسَ فِي اللهِ) أي: لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم لا رجاء مدحهم ولا خوفاً من ذمهم، بل ارج الله ولا تخفهم في الله فيما تأتي وما تذر بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه.

وفي الحديث: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ أَوْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ»، فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدييره فإذا أَرْضِيَتْهُمْ بِسَخَطِ اللهِ لم تكن موقناً لا بوعدده ولا برزقه فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله؛ لما يرجوه منهم.

وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة فإنك إذا أَرْضَيْتَ اللهُ نصرَكَ ورزقَكَ وكفاكَ مؤنتهم وإرضائهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم؛ وذلك من ضعف اليقين وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك.

فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك؛ لكن من حمده الله ورسوله ﷺ فهو المحمود ومن ذمه الله ورسوله ﷺ فهو المذموم.

وَلَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفِدِ بَنِي تَمِيمٍ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنْ ذَمِّي شَيْنٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَرَوِي أَنَّهَا رَفَعَتْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَرْضَى اللَّهُ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف: (مَنْ أَرْضَى اللَّهُ بِسَخَطِ النَّاسِ ﷺ)، وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ دَامًا) هذا لفظ المأثور عنها وهذا من أعظم الفقه في الدين.

والمرفوع أحق وأصدق فإن من أَرْضَى اللَّهُ بِسَخَطِهِمْ كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين وهو كاف عبده: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُم يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ فَجَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٢﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣].

فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب وأما كون الناس كلهم يرضون عنه: فقد لا يحصل ذلك لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة ومن أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا كالظالم الذي يعرض على

يده يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾
 يَوَيْلَ لَيَلَيْتَنِي لَمَّا اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ [سورة الفرقان: ٢٧-٢٨].

وأما كون حامده ينقلب ذاماً: فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة فإن العاقبة
 للتقوى لا يحصل ابتداء عند أهوائهم وهو سبحانه أعلم.

السنة الرابعة والأربعون

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

* هذه سنة من سنن الله في خلقه ووعد صادق منه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٠٠].

قال السعدي رحمه الله: هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده، أن من هاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة.

فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا، وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، ودُلاً بعد العزة، وشدة بعد الرخاء، والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن مادام بين أظهر المشركين فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يُفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً، فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله، ومُراغمتهم.

فإن المُراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة الأعداء من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله واعتبر ذلك بالصحابه رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله، كُمل بذلك إيمانهم وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله،

ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس. وهكذا كل من فعل فعلهم حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

✽ وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تقرر هذا المعنى وتؤيده:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤُلِيكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٨].

وقال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا لَا تَنْهَرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [سورة التوبة: ٢٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٤١].

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سورة الحج: ٥٨].

والأمثلة كثيرة على هذه السنة، فأنبياء الله ورسله هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وخرجوا إلى ديار أخرى، لإقامة دين الله.

قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَمِنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٦].

قال السعدي رحمه الله: أي: لم يزل إبراهيم عليه السلام يدعو قومه وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له لوط بدعوته. وقال إبراهيم عليه السلام حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً، إني مهاجر إلى ربي، أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي أرض الشام.

إنه هو العزيز الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، لكنه حكيم واقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم، لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم. اهـ.

- كما هاجر موسى عليه السلام من أرضه، **قال الله تعالى عنه:** ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١].

- وهذا نبينا محمد ﷺ جعل الله هجرته إلى المدينة عزة ومنعة له ولدينه، حيث قام الأنصار بـ ٣ بحمايته والدفاع عنه والجهاد معه، ونشر دين الله تعالى، فإنه لما ضاقت الأمور واشتد أذى المشركين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، من المستضعفين بمكة وخصوصاً بعد موت أبي طالب، أذن الله لنبه بالهجرة فجعل الله فيها النصر والتمكين، وحصلت السعة للمسلمين، وتمكنوا من إقامة دينهم ودعوة الناس إليه، وهم في عزة ومنعة.

فإن هذا وعد من الله لا يُخلفه، وكذلك أصحابه عليه السلام أذن الله لهم أولاً في الهجرة إلى الحبشة، والنبي ﷺ بمكة قبل أن يهاجر، فنزلوا في جوار النجاشي عليه السلام، وكانوا في خير جوارٍ وحماهم، وقال لهم: أنتم سيوم بأرضي، من سبكم غرم.

فجعل الله لهم مُراعماً وسعة بعد شدة العذاب والقهر من كفار قريش، ثم أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، حيث كانت إقامة دولة الإسلام.

وهذا سلمان الفارسي في قصة طويلة مشهورة، أنه هاجر من بلده فارس بحثاً عن الدين الحق، حتى تمكن منه بعد زمنٍ طويل، ومشقةٍ وتعب، ولكن جعل الله في هجرته تلك الخير والبركة، حتى صار من أصحاب النبي ﷺ الذين قال فيهم: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ فِي الثَّرِيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ».

وسنة الله باقية لا تتبدل، فإن من خرج من بيته مهاجراً في هذا الزمن وفاراً بدينه من بلاد الكفر، ومن أرض المعاصي والبدع، فإنه موعود بهذا الوعد الحق، أن الله يجعل له في الأرض مُراعماً كثيراً وسعة، ولكن لا بد أن تكون هجرته خالصة لله وفي سبيل إقامة دين الله.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآيات من سورة النساء عدة أحاديث في هذا الباب: منها ما ثبت في «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

- وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال، ومنه الحديث الثابت في «الصحيحين» في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سال عالماً هل من توبة؟ فقال له: من يحول بينك وبين التوبة. ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر، يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر، أدركه الموت في الطريق، فاختمت فيه ملائكة

الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: جاء تائبًا، وقال هؤلاء: لم يعمل خيرًا قط. فأمرُوا أَنْ يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أَنْ تقترب من هذه، وهذه أَنْ تتبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة. اهـ.

وقال ابن كثير رحمه الله عند تفسير **قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ [سورة النحل: ٤١-٤٢]: يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله، ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة، الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ط [سورة النحل: ٤١]، قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرًا منها في الدنيا.

فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكَّتهم الله في البلاد وحكَّهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكماء وكل منهم

للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا. اهـ.

السنة الخامسة والأربعون

مَا مِنْ عَامٍ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ

* هذه السنة بينها رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه «البخاري» في [كتاب الفتن]، عن الزبير بن عدي، قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلَقَى مِنَ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: «اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ». سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

وأخرج البخاري أيضًا من حديث أمِّ سلمة ﷺ، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجَرِ - يُرِيدُ بِهِ أَرْوَاجَهُ - حَتَّى يُصَلِّيْنَ، رَبُّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ».

قال الحافظ رحمه الله: قال ابن بطال: هذا الخبر من أعلام النبوة، لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يُعلم بالرأي وإنما يُعلم بالوحي. اهـ. وقد استُشْكِلَ هذا الإطلاق، مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبد العزيز، وهو بعد زمن الحجاج بيسير، وقد اشتهر الخير الذي كان في زمن عمر بن عبد العزيز، بل لو قيل إن الشر اضمحل في زمانه، لما كان بعيدًا، فضلًا عن أن يكون شرًّا من الزمن الذي قبله.

وقد حَمَلَهُ الحسن البصري على الأغلب والأكثر، فسُئِلَ عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال: لا بد للناس من تنفيس.

وأجاب بعضهم: أن المراد بالفضل تفضيل مجموع العصر، على مجموع العصر، فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء، وفي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خيرٌ من الزمان الذي بعده، لقوله عليه السلام: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي»، وهو في «الصحيحين». وقوله: «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

* ثم وجدتُ عن عبد الله بن مسعود التصريح بالمراد، وهو أولى بالإتباع، فأخرج يعقوب بن شعبة، من طريق الحارث بن حصيرة، عن زيد بن وهب، قال: سمعت عبد الله بن مسعود عليه السلام، يقول: (لا يأتي عليكم يومٌ إلا وهو شرٌّ من اليوم الذي كان قبله، حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاءً من العيش يصيبه، ولا مالا يفيد، ولكن لا يأتي عليكم يومٌ إلا وهو أقلُّ علماً من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرؤن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون). اهـ.

وأخرج البخاري ومسلم، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَتَكُونُ فِتْنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلَجًا أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ».

وأخرج البخاري عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ،

فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَخَرَتْهُ عَلَى رَجُلِكَ، فَتَقِطُ فَتَرَاهُ مُتَبَرِّأً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُضْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا؛ وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجَلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ». وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ؛ لَيْنٌ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهَ عَلَيَّ الْإِسْلَامُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهَ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ، فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فَلَانًا وَفُلَانًا.

وروى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ». وقد شكوا أهل العلم من أزمنة بعيدة ظهور الشر، وازدياده، وظهور البدع، وتنوعها.

قال ابن الباركة رحمته الله كما ذكره الساطبي رحمته الله في «الاعتصام» (١/ ٩١): اعلم أي أخي أن الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان وظهور البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حلَّ بهذه الأمة من ذهاب العلماء وأهل السنة وظهور البدع. اهـ.

السنة السادسة والأربعون

من هرب من الدنيا طلبته ومن طلبها هرب منه

* هذه السنة ذكرها ابن كثير رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمُ أَنْهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة يونس: ٢٤-٢٦].

قال رحمه الله: ضرب رحمه الله مثلاً لزهرة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها، وزوالها بالنبات الذي أخرج الله من الأرض، بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آبٍ وقضب، وغير ذلك ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [سورة يونس: ٢٤]، يعني زينتها الفانية، وحسنت بما يخرج في ربها من زهور نضرة، مختلفة الأشكال والألوان، وظن أهلها الذين زرعوها وغرسوها أنهم قادرون عليها، أي على حصادها وجذاذها. فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها.

ولهذا قال أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً، أي يابساً بعد الخضرة والنضارة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [سورة يونس: ٢٤]، أي كأنها ما كانت حيناً قبل

ذلك قال قتادة: كان لم تغن كان لم تنعم وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

ولهذا جاء في الحديث: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْعَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْعَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» رواه مسلم. **وقال**

تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ (٧٨) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ ﴿٩٢﴾ [سورة الأعراف: ٧٨-٩٢]، ثم **قال تعالى:** ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾، أي نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها مع اغترارهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها، وتفلتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية في كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا﴾ [سورة الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا. اهـ.

- وقد روى الترمذي رحمته الله (٢٤٦٥): عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا

وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ.

قال الباركفري رحمه الله في "تحفة الأحوزي": قوله: «وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»، أي: ذليلة وحقيرة تابعة له، لا يحتاج في طلبها إلى سعي كثير، بل تأتية هينة لينه على رغم أنفها وأنف أربابها. وقوله: «وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» أي وهو راغم، فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه.

❦ **وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" أمثلة كثيرة تبين حقيقة الدنيا نذكر بعضها للفائدة:**
المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال:

حالة لم يكن فيها شيء، وهي قبل أن يوجد. وحالة أخرى، وهي من ساعة موته إلى ما لا نهاية له، في البقاء السرمدى، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن، إما في الجنة وإما في النار، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله، ويسكن إحدى الدارين في خلود دائم، ثم بين هاتين الحالتين، وهي ما بعد وجوده وما قبل موته، حالة متوسطة، وهي أيام حياته، فلينظر إلى مقدار زمانها، وأنسبه إلى الحالتين، يعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبالى كيف تقصّت أيامه فيها، في ضرٍ وضيقٍ أو في سعة ورفاهية. ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها». وقال رسول الله ﷺ: «ما الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمِثْلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ».

المثال الثاني: ما مثلها به النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، يقول قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «لَا وَاللَّهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَّا مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّتِي الْخَيْرُ بِالْشَّرِّ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟». قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّتِي الْخَيْرُ بِالْشَّرِّ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ أَوْ خَيْرٌ هُوَ إِنْ كُلُّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا أَكَلَةَ الْخَضِرِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ ثَلُطَتْ أَوْ بَالَتْ ثُمَّ اجْتَرَّتْ فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ فَمَنْ يَأْخُذُ مَا لَا بِحَقِّهِ يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ وَمَنْ يَأْخُذُ مَا لَا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ». فأخبر أنه إنما يخاف عليهم الدنيا وسماها «زهرة»، فشبها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره، وقلة بقاءه، وأن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

وقوله: «مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ» هذا من أحسن التمثيل، المتضمن للتحذير من الدنيا، والانهماك عليها، والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع، فتأكل منه بأعينها، وربما هلك حبطاً.

«والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء، أو من المرض، يقال: حبط الرجل والدابة، تحبط حبطاً إذا أصابه ذلك، ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره، فمات حبطاً، فنسب (الحبطي)، كما يقال (السلمي)، فكذلك الشره في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله، قارب أن يقتله، وهو قوله: «أو يلِم»، وكثير من أرباب الأموال، إنما قتلتهم أموالهم، فإنهم شرهوا في

جمعها، واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها، إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم أو قهرهم.

وقوله: «إِلَّا أَكَلَةَ الْخَضِرَاءِ» هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها. «أَكَلْتُ حَتَّى إِذَا امْتَلَأْتُ خَاصِرَتَاهَا»، وفي لفظ «امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا» وإنما تمتد من امتلائها بالطعام، وثني الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

وفي قوله: «اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ ثَلَاثَ فَوَائِدَ:

إحداها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته، وبركت مستقبله الشمس لتستمرئ بذلك ما أكلته.

الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط، ما جمعته من المرعى في بطنها، فاستراحت بإخراجه، ولو بقي في بطنها لقتلها، فكذاك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة، وأول الحديث مثل الشره في جمع الدنيا الحريص على تحصيلها.

فمثاله: مثال الدابة التي حَمَلَهَا شره الأكل على أن يقتلها حبطاً أو يلم، إذا لم يقتلها، فإن الشره الحريص، إما هالكٌ وإما قريب من الهلاك، فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب فتستكثر منه الدابة، حتى يتنفخ بطنها، لما جاوزت حد الاحتمال فتنشق أمعاؤها وتهلك.

كذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها، ويحبسها أو يصرفها في غير حقها، وآخر الحديث مثل للمقتصد بأكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله ولم يحملها شرها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه، ثم أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال في حقه، حيث يكون حبسه وإمساكه مضرًا به فنجأ من وبال جمعه، بأخذ قدر حاجته منه، ونجأ من وبال إمساكه بإخراجه، كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

المثال الثالث: وهو من أحسن الأمثلة: مَلِكٌ بنا دارًا لم يرَ الراؤون، ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقًا، وبعث داعيًا يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زُينت بأنواع الزينة وألبست أنواع الحلّي والحلل، وممر الناس كلهم عليها، وجعل لها أعوانًا وخدمًا، وجعل تحت يدها ويد أعوانها زادًا للمارين السائرين إلى الملك في تلك الطريق.

وقال لها ولأعوانها: من غَضَّ طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وابتغى منك زادًا يوصله إلي، فاخدميه وزوّديه ولا تعوقيه عن سفره إليّ، بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره، ومن مد إليك عينيه ورضي بك، وآثرك عليّ وطلب وصالك فسوّميه سوء العذاب، وأوليه غاية الهوان، واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش، ومن يأكل منك فاخدمه به قليلًا، ثم استرده منه واسلبه إياه كله، وسلّطي عليه إتباعك وعبيدك، وكلّ ما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك

فقابليه بأمثاله قَلَى وإهانة وهجرًا، حتى تتقطع نفسه عليك حسرات. فتأمل هذا المثل وحال خُطَّاب الدنيا وخُطَّاب الآخرة، والله المستعان. اهـ.

ثم قال ابن القيم رحمه الله بعد ذلك: وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ إلى أربعة أقسام:

قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم، كالصديق ﷺ ومن سلك سبيله.

وقسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها كعمر بن الخطاب ﷺ ومن سلك سبيله.

وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم حاشا عمر بن عبد العزيز ﷺ، فإنها أرادته ولم يردها.

وقسم أرادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده واسكنها في قلبه وامتنحه بجمعها.

ولا يخفى أن خير الأقسام الأول، والثاني إنما فُضِّلَ لأنه لم يردها فالتحق بالأول. اهـ.

السنة السابعة والأربعون

أهل الباطل أهل تعنت وتكذيب وتناقض وتشويه

* هذه سنة الله في أهل الباطل وأعداء الرسل أنهم في كل زمان ومع كل نبي وداعية إلى الحق، أنهم أهل تعنت وإيراد للشبه، وتكذيب وتشويه لسمعة أهل الحق، ومن ثمَّ يقعون في التناقض.

قال الله تعالى حاكيا عن نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٤] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَى صُورَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ [سورة المؤمنون: ٢٤ - ٢٥].

فقد جمعوا في هذه الآيات بين عدة أنواع من الشبه والمعارضة:

الأولى: أنه أراد التفضل عليهم ليكون متبوعاً وهو من جنسهم.

الثانية: المعارضة بالمشيئة أن الله لو شاء لأنزل الرسل من الملائكة.

الثالثة: احتجاجهم بالآباء وأنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم.

الرابعة: اتهامه بالجنون.

قال السعدي رحمته الله: وهذه الشبه التي أوردوها معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة، فقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٤]، اثبتوا له عقلاً يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج مع هذا أن يحذر منها لئلا يغتر به.

فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرِيصُوا﴾ [سورة المؤمنون: ٢٥]، وهل هذا إلا من مشبه ضال منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق، اتفق لغير عالم بما يقول، ويأبى الله إلا أن يُظهر خزي من عاداه. اهـ.

ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۚ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الفرقان: ٧-٨].

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق، بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾، يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه: ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي يتردد فيها وإليها، طلباً للكسب والتجارة، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، وهذا **كما قال:** ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٣].

وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: ينفق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة البالغة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٨]، **قال الله:** ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الفرقان: ٩].

أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحرٌ مسحورٌ مجنونٌ كذابٌ شاعرٌ، وكلها أقوال باطلة، وكل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافترائهم في ذلك. اهـ.

وقال الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [سورة طه: ٦٣].

وقال الله عن فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء: ٢٧].

قال الساطبي رحمه الله: في "الاعتصام": (١ / ١١): وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه الله على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم له في مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تتحل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة فحين قام فيهم رسول الله ﷺ مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر، وغبروا في وجه صوابه بالإفك، ونسبوا إليه إذ خالفهم في الشريعة، وناذهم في النحلة كل محال، ورموه بأنواع البهتان، فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق، الذي لم يجربوا عليه خبراً، بخلاف مخبره، وآونة يتهمونه بالسحر وفي علمهم أنه لم يكن من أهله، ولا ممن يدعيه، وكرة يقولون أنه مجنون مع تحققهم بكمال عقله وبرأته من مس الشيطان وخبله.

وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحق وحده لا شريك له، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَحِيدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [سورة ص: ٥]، مع إقرارهم بمقتضى هذه الدعوة الصادقة: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥].

وإذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا ما يشاهدون من الأدلة على إمكانه وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣].

وإذا خوفهم نقمة الله قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطْ عَنْ لِسَانِنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِتَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: ٣٢] اعتراضاً على صحة ما أخبرهم به مما هو كائن لا محاله.

وإذا جاءهم بآية خارقه افترقوا في الضلالة على فرق، واخترقوا فيها بمجرد العناد ما لا يقبله أهل التهدي إلى التفرقة بين الحق والباطل، كل ذلك دعاء منهم إلي التآسي بهم، والموافقة لهم على ما يتحلون إذا رأوا خلاف المخالف لهم في باطلهم، ردًا لما هم عليه ونبذا لما شددوا عليه يد الظنة، واعتقدوا إذ لم يتمسكوا بدليل إن الخلاف يوهن الثقة، ويقبح من جهة الاستحسان، وخصوصاً حين اجتهدوا في الانتصار بعمل فلم يجدوا أكثر من تقليد الآباء، ولذلك أخبر الله

تعالى عن إبراهيم في محاجة قومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الشعراء: ٧٠-٧٤].

فحدادوا كما ترى عن الجواب القاطع المورد مورد السؤال إلى الاستمساك بتقليد الآباء قال الله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ فُتُوحٌ لَهُمْ فَيُتِمُّوا صَبْرَهُمْ بِمَا أُوتُوا ﴿٢١﴾﴾ [سورة

الزخرف: ٢١-٢٢]، فرجعوا عن جواب ما أُلْزِمُوا إلى التقليد، **فقال تعالى:** ﴿قُلْ أُولَئِكَ جَحِشْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ﴾ [سورة الزخرف: ٢٤] فأجابوا بمجرد الإنكار ركونا إلى ما ذكروا من التقليد لا بجواب السؤال. اهـ.

*** وقد استخدم أعداء الرسالة قديماً وحديثاً أساليب متنوعة في صدّهم**

عن الحق وأهله فمنها:

١- طلب المعجزات والمستحيلات من الرسل **عليه السلام**: **قال الله تعالى:** ﴿وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ۖ ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۖ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال تعالى عن قوم موسى **عليه السلام**: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٥٥].

وقال تعالى عن قوم عيسى **عليه السلام**: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: ١١٢].

٢- إظهار الحرص على الدين وعلى الصلاح، وهم بعكس ذلك: **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۖ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١-١٢].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [سورة غافر: ٢٩] وقال تعالى عنه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [سورة غافر: ٢٦]، وهذا يعد من تقليب الحقائق.

٣- احتقار أهل الحق: قال الله تعالى عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [سورة الزخرف: ٥٢] وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٤]. وقال تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْثُكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْثُكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [سورة هود: ٢٧].

٤- الاعتذار بالتمسك بدين الآباء: قال الله عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠].

٥- المكر: قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَافِقَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٢] [سورة آل عمران: ٧٢].

٦- تشويه السمعة: قال الله تعالى: ﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [سورة طه: ٦٣].

وقال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [سورة الطور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الحجر: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر: ٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣].

إلى غير ذلك من الأساليب المتنوعة والمتعددة.

* ولا تزال سنة الله في هؤلاء الصادقين عن سبيل الله، والمحاربين لدعوة الله الحق، قائمة إلى أن تقوم الساعة.

👉 لكن تميّزت هذه الأزمان بوسائل خفية في ضرب هذه الدعوة المباركة، تفتن لها أهل العلم وأدركوا خطورتها، منها ما ذكره شيخنا العلامة المحدث يحيى بن علي الحجوري حفظه الله تعالى في كتابه "أضرار الحزبية على الأمة الإسلامية" تحت عنوان: [الوسائل الخفية لضرب الدعوة السلفية].

- ونلخص عناوينها طلباً للاختصار، ومن أراد التوسع فليرجع إلى المصدر المذكور، فانه مفيدٌ جداً:

- ١- التحريش بين علماء هذه الدعوة وأفرادها.
- ٢- التلفيقات والبت والكذب عليهم.
- ٣- التصنع والتزلف عند علماء السنة ليتسنى للحزبيين نشر ما يريدون وهي أخطرها.

- ٤ - محاولة جعل تكافؤ الدعوات.
 - ٥ - إدخال الحزبيين في أوساط السلفيين وفي معاقلهم.
 - ٦ - زرع الجدل في أوساط السلفيين بألفاظ مجملة.
 - ٧ - تشويه صورة الدعوة، إما بتكفيرٍ وإما بغلو في تبديع أو تنسيق بغير حق، ونحو ذلك.
 - ٨ - مد الأيدي لبعض المغفلين من السلفيين، وبذل الأخلاق المزيفة.
 - ٩ - التنفير المباشر عن الدعوة السلفية، بقولهم هؤلاء يُجَرِّحون ويتكلمون في العلماء..
 - ١٠ - تشويه صورة الجرح والتعديل.
 - ١١ - محاولة إدخال السلفيين في أعمال الحزبيين.
 - ١٢ - إثارة الطالب على شيخه. اهـ.
- * وذكر الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمته الله وأسكنه فسيح جناته في كتابه "مقتل الشيخ جميل الرحمن الأفغاني": فصل: حول كلمة (وهايي): وكيف استخدمها أعداء الدعوة إلى التنفير من الدعوة السلفية، **نقال** رحمته الله :
- في هذا الزمن المخلوط بالشرك، وبما يسوء المسلمين، هناك نهضة مباركة في جميع البلاد الإسلامية، وعجز أعداء الإسلام أن يواجهوا هذه النهضة المباركة، التي الفضل فيها لله عز وجل، فهو الذي بارك فيها ونمّاها وسدّدها.
- ثم عمّد أعداء الإسلام إلى التنفير عن هذه النهضة المباركة، بألقاب شتى، ليصرفوا المسلمين عنها، منها تلكم الكلمة الخبيثة التي يشيعها البعثيون

والناصريون والشيوعيون والرافضة والصوفية المبتدعة، يشيعونها في مجتمعاتنا ليصدوا الناس عن سنة رسول الله ﷺ، ألا وهي كلمة (وهاية).
 فمن تمسك بسنة رسول الله ﷺ نفّروا عنه، وأطلقوا عليه ذلكم اللقب لينفروا عنه.. إلخ كلام الشيخ رحمه الله، فراجعه فإنه كلام مفيدٌ جداً.

السُّنَّة الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ

لُجُوءُ أَهْلِ الْبَاطِلِ إِلَى الشَّدَةِ وَالْقُوَّةِ عِنْدَ عَجْزِهِمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْحَقِّ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ

* هذه سُنَّة من سُنَنِ اللَّهِ في خلقه، أن أهل الباطل وأعداء الرسل يبدلون في مقاومة الحق كل ما يستطيعون، من الأساليب والمكر والخداع والتشويه، إلى غير ذلك مما تقدم في السُّنَّة السابعة والأربعين، فإذا عجزوا عن مقاومة الحق بهذه الوسائل، لجئوا إلى العنف والقوة والشدة، وقد بيَّن الله هذا في غير ما آية في كتابه العزيز، ومع التأمل في هذه الآيات يتبين أن الله سبحانه ينجي عباده وأنبياءه ورسله من كيد أعدائهم.

١ - قال الله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٤].

٢ - وقال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: ٩٧] فنجى الله نبيه إبراهيم من هذه النار وجعلها آية بأن كانت بردا وسلاما على إبراهيم، وكبت الله أعداءه.

٣ - وقال تعالى عن والد إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٦].

٤ - وقال تعالى عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْأَوْطِ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٦].

٥ - وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [سورة

الشعراء: ١٦٧].

٦ - وقال تعالى عن قوم صالح: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي

الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا

شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤُهُمْ مَكْرًا وَمَكْرُنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة النمل: ٤٨-٥٠].

فذكر الله هنا أنه يمكر بهم مقابلة على مكرهم بأنبيائه ورسله، ومن يقدر على

مقاومة كيد الله سبحانه! فإن من كاده الله فقد هلك.

٧ - وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿لَيْنَ لَّمْ تَنْتَه يَنْتُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [سورة

الشعراء: ١١٦].

٨ - وقال تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٨].

٩ - وقال تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

السِّحْرَ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا ضَلِيلَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا

أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: ٧١].

١٠ - وقال تعالى عنه: ﴿قَالَ سَنُقْلِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

قَاهِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٧].

١١ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا﴾ [سورة غافر: ٢٥].

١٢ - **قال تعالى:** ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ

دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [سورة غافر: ٢٦].

١٣ - **وقال تعالى عن هارون:** ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [سورة

الأعراف: ١٥٠].

١٤ - **وقال تعالى عن نبيه محمداً ﷺ:** ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ

يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠].

١٥ - **وقال تعالى:** ﴿إِلَّا نَنْصُرْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ

كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

فعد الله إخراج نبيه من بين أظهرهم نصراً، ومكن الله لنبيه بعد ذلك ونصره

١٦ - **وقال تعالى:** ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾

[سورة البقرة: ٢١٧].

١٧ - **وقال تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ

لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٣].

فهذه سنة الله الجارية في الصراع بين الحق والباطل، وأن أهل الباطل إذا عجزوا عن مقاومة أهل الحق بالحجة والبيان وهم عاجزون تحولوا إلى استعمال القوة والتهديد والإخراج بل والقتل، وهكذا يبتلى الصالحون بعد أنبياء الله ورسله في كل زمان وإلى زماننا هذا، وقصصهم كثيرة جداً ليس هذا مكان بسطها، ومن أهمها ما حدث للإمام أحمد بن حنبل رحمته الله من المحنة الشديدة، في مسألة خلق القرآن، وما حدث لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله من

تسلط المبتدعة عليه، حتى قضى زمناً طويلاً في السجن، وهكذا في هذه الأزمنة المتأخرة لا يكاد عالمٌ يسلم.

قال الشيخ قبل بن هادي الرادعي رحمته الله في "رياض الجنة" (٥٨): وما حصل من الأذى لمحمد بن إبراهيم الوزير، وصالح بن مهدي المقبل، ومحمد بن إسماعيل الأمير، ومحمد بن علي الشوكاني معروف.

وهذه أبيات لـ محمد بن إبراهيم الوزير يصف لنا حالته مع مجتمعه، وما حصل له من الأذى، حتى ألجىء إلى الفرار بدينه من شاهقٍ إلى شاهق، ومن وادٍ إلى وادٍ، قال رحمته الله:

أشـم منيف للغمام مؤزر	فحيناً بطود تمطر السحب دونه
حشا قلم تمسي به الطير تصفر	وحيناً بشعب بطن واد كأنه
توهمها من طولها تتأخر	إذا التفت الساري به نحو قلة
فجيرتها للمرء أولى وأجدر	أجاور في أرجائه البوم والقطا
وإلا فورد العيش رمق مكدر	هنالك يصفو لي من العيش ورده
فروض العلا والعم والدين أخضر	فإن يبست ثم المراعي وأجدبت
ولكن عاراً عجزه حين ينصر	ولا عار أن ينجو كريم بنفسه
وفر إلى أرض النجاشي جعفر	فقد هاجر المختار قبلي وصحبه

السنة التاسعة والأربعون

مُعَامَلَةُ مَنْ خَالَفَ الشَّرْعَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ

* هذه السنة العظيمة بينها الله في كتابه في عدة مواضع، وبينها رسوله ﷺ في عدة أحاديث من سنته، وهي أن الله قد يعاقب من ارتكب محرماً طمعاً في حصول شيء في الدنيا، أن الله يعاقبه بنقيض قصده، وهو على كل شيء قدير، وله الحكمة البالغة، وله الأمر من قبل ومن بعد.

* وفيها بيان أن الله هو المعطي، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

* فهاهو مسيلمة الكذاب عليه لعنة الله، أراد بادعائه النبوة الحصول على المنزلة الرفيعة بين الناس، والذكر الحسن، وقام بإنشاء كلام زعم بأنه وحي يوحى إليه، وأنه بمثابة القرآن المنزل على النبي ﷺ، فعامله الله بنقيض قصده، فأصبح مهاناً حقيراً، ولا يُذكر كلامه إلا على وجه السخرية والاستهزاء والضحك.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: عند تفسير قول الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يونس: ١٧] :

قال: وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر على أمره لامحالة، بأقواله

الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة، بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة.

وكم من فَرْقٍ بين قول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] [سورة البقرة: ٢٥٥]، وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نُقِّي كم تَنْقِيْن، لا الماء تُكدرين، ولا الشارب تمنعين. وقوله قبحه الله: لقد أنعم الله على الحُبلى، إذ أخرج منها نسمة تسعى، صفاق وحشا. وقوله: خلده الله في جهنم وقد فعل: الفيل، ما الفيل؟ وما أدراك ما الفيل؟ له خُراطوم طويل. وقوله: أبعد الله من رحمته: والعاجنات عجنا، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناء، إن قريشاً قومًا يعتدون. إلى غير ذلك من الخرافات والهديانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه وشرب يوم الحديقة حتفه، ومزَّق شمله، ولعنه صحبه وأهله وقدموا على الصديق تائبين.

- وذكروا أن عمرو بن العاص وفَدَ على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يُسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورةً عظيمة قصيرة. فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۝٢﴾ [سورة العصر: ١-٣]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثلها. فقال: وما هو؟ قال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرُك حفر نقر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كاذب. اهـ.

قال السبغ ابن عيينة رحمه الله في "القول المفيد في شرح كتاب التوحيد" عند شرح حديث أبي هريرة الذي في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه واله

وسلم قال: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ». زَادَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي رِوَايَتِهِ «لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ»:

قال: قوله: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ» أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى. فأوضع اسم عند الله، رجلٌ تسمى ملك الأملاك، لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة، فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، ولهذا عُوقِبَ بنقيض قصده، فصار أوضع اسم عند الله، إذ قصده أن يتعاضم حتى على الملوك، فأهين.

ولهذا كان أحبُّ اسم إلى الله ما دلَّ على التذلل والخضوع، مثل عبد الله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دلَّ على الجبروت والسلطة والتعظيم. اهـ.

وقد قصَّ الله علينا قصة فرعون وملائته، ومؤامرتهم ضد نبي الله موسى ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه، **قال الله تعالى:** ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٣٤-٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله: قال الملائة: وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه رَوْعُهُ، واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٤]، فوافقوه، وقالوا كمقالته وتشاوروا في أمره، كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافتراءه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه. **كما قال تعالى:** ﴿وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهُمَّنَّ وَخُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا

كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿[سورة القصص: ٦]﴾، فعاقب الله فرعون وملائته بنقيض قصدهم، وكما أن الله عاقبه من بداية الأمر بنقيض قصده، فحيث قصد إهلاك بني إسرائيل تخوفاً من موسى عليه السلام، الذي سيكون زوال ملكه على يده. فأراد الله أن يكون هو الذي يربي موسى في بيته حتى يبلغ أشده، والله الأمر من قبل ومن بعد، وإذا أراد الله شيئاً فلا رادّ لقضائه.

* كما أن من الأمثلة على هذه السنة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في كتابه «السياسة الشرعية»:

فيجب على كل من ولي شيئاً من أمر المسلمين من هؤلاء ومن غيرهم، أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه، ولا يُقدِّم الرجل لكونه طلب الولاية، أو يسبق في الطلب، بل ذلك سببٌ للمنع، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ، أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولايةً، فقال: «إنا لا نُؤلي أُمَرَاءَ هَذَا مَنْ طَلَبَهُ». وقال لعبد الرحمن بن سمرة: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَاتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْ عَنْ يَمِينِكَ». متفق عليه.

وقال ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَكِلَإِ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَطْلُبْهُ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ». رواه أهل السنن.

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما أو ولاء، عتاقة أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس، كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال، أو منفعة أو غير ذلك من

الأسباب، أو لَصَغَنَ في قلبه على الحق، أو عداوةً بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى الله عنه في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧] ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٢٨]، فإن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه، قد يُؤثره في بعض الولايات، أو يعطيه مالا يستحقه، فيكون قد خان أمانته.

كذلك قد يؤثر زيادة في ماله أو حفظه، بأخذ مالا يستحقه، أو محابة من يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خان الله ورسوله، وخان أمانته، ثم إن المؤدي للأمانة مع مخالفة هواه يثبتته الله فيحفظه في أهله وماله وبعده.

والمطيع لذلك، أي لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده، فيهلك أهله وماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة، أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك. فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز، فقيل له: يا أمير المؤمنين أفقرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء، لا شيء لهم، وكان في مرض موته، فقال: أدخلوهم عليّ، فأدخلوهم بضعة عشر رجلاً، ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، قال: يا بنيّ والله ما منعكم حقاً هو لكم، ولم أكن بالذي أخذ أموال الناس فادفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين، إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني. قال: لقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني أعطاه لمن يغزو عليها. اهـ.

*** مثال آخر:** روى أبو داود في سننه (٤٠٢٤)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شَهْرَةِ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ، ثُمَّ تُلْهَبُ فِيهِ النَّارُ». وفي رواية «ثَوْبٌ مَذْلَةٌ». وهو في «صحيح الجامع».

قال النارب رحمته الله: في «فيض القدير»: قال القاضي: المراد بثوب الشهرة: ما لا يحل لبسه. ثم قال: قوله «ثَوْبٌ مَذْلَةٌ»، أي: يشملها بالذل كما يشمل الثوب البدن، في ذلك الجمع الأعظم، بأن يُصَغَّرَ في العيون ويحقره في القلوب؛ لأنه لبس شهوة الدنيا، ليفتخر بها على غيره، فيلبسه الله مثله. «ثُمَّ تُلْهَبُ فِيهِ النَّارُ»، عقوبة له بنقيض فعله، والجزاء من جنس العمل.

قلت:

- من بابهِ الحديث الذي رواه البخاري (٥٧٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مَشْيِهِ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فعاقبه الله بنقيض ما قصد من التكبر والترفع، بأن جعله ينزل يتجلجل في السُّفُولِ إلى يوم القيامة.

- ومن بابهِ أيضًا ما رواه الترمذي رحمته الله (٢٤٩٢): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسْ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَاةَ أَهْلِ النَّارِ».

*** والأمثلة على هذه السنة كثيرة جدًا، وإنما المقصود التذليل على أن هذه سنة من سنن الله في خلقه. نسأل الله أن يعاملنا بلطفه ورحمته، أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.**

السُّنَّةُ الْخَمْسُونَ

سنة الله في التدرج في الأمور

✽ بين الله هذه السنة في كتابه في غير ما موضع.

👉 فمن ذلك ما قصه الله علينا من قصة نبي الله موسى عليه السلام كما في سورة القصص.

قال السعدي رحمته الله: قول الله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾، بأن نُزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونُهلك من قاومهم، ونخذل من ناوهم ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾، في الدين. وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لابد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، للأرض الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة. ﴿وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته ﴿و﴾ كذلك نريد أن: ﴿وَتَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾، التي بها صالوا وجالوا وعلوا وبغوا ﴿مَنْهُمْ﴾، أي من هذه الطائفة المستضعفة ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، من إخراجهم من ديارهم.

ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمراً سهلاً أسبابه، ونهَجَ طُرُقَهُ، وهذا الأمر كذلك فإنه قدّر وأجرى من الأسباب التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه، ما هو سببٌ موصلٌ إلى هذا المقصود.

فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون

فيها الأبناء، أوحى إلى أمه أن تَرْضِعْهُ ويمكث عندها، ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ﴾، بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، أي نيل مصر في وسط تابوت مغلق، ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فبشرها بأنه سيردّه إليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولاً.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقدير هذه البشائر لأم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم فساقه الله تعالى، ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ﴾، فصار من لَقَطِهِمْ وهم الذين باشروا وجدانه.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي لتكون العاقبة والمال من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذين خافوا منه من بني إسرائيل، قَيَّضَ اللهُ أَنْ يَكُونَ زَعِيمَهُمْ يَتَرَبَّى تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وعلى نظرهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل تجد في طيّ ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث أنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف الذي بلغ بهم الذل والإهانة، إلى ما قصَّ اللهُ علينا بعضه، أن صار بعض أفرادهم ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض. وهذا مقدمة للظهور فإن من سنة الله

الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج، شيئاً فشيئاً ولا تأتي دفعةً واحدة. اهـ.

👉 كما أن المتأمل والمتدبر لقصة يوسف عليه السلام يجد كذلك حكمة الله البالغة، وسنته الجارية في تدرج الأمور، في قصته العجيبة التي بدأت من الكيد والرق، إلى المُلْك والتمكين. فسُبحان من بيده ملكوت كل شيء وهو العزيز الحكيم.

قال ابن كثير رحمته الله عند قوله تعالى عن يوسف: ﴿إِن رَّبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠] **قال:**

أي: إذا أراد الله أمراً قَيَّضَ له أسباباً وقَدَّرَه وَيَسَّرَه، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره وما يختاره ويريده. اهـ.

وقال السعدي رحمته الله عند هذه الآية: ﴿إِن رَّبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠]: أي يوصل برّه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، إنه هو العليم الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، الحكيم في وضعه الأشياء مواضعها، وسَوَّقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها. اهـ.

👉 وكذلك عند تأمل سيرة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، نجد بيان هذه السُّنَّة كما قاله ابن القيم رحمته الله في "زاد المعاد" (١٤٣/٣):

[فصل: في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بُعث إلى أن لقي الله ﷻ]:

أول ما أوحى إليه ربّه ﷻ أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك أن يبلغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ

﴿قُرْآنُكَ﴾ [سورة المدثر: ١-٢] فنباه بقوله: ﴿أَقْرَأُ﴾، وأرسله بـ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْرُ﴾

[سورة المدثر: ١]، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم، أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنه بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتالٍ ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

*** ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:**

١- أهل صلح وهدنه.

٢- وأهل حرب.

٣- وأهل ذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر بأن يقاتل من نقض عهده.

- ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم، فجهاد الكفار بالسيف والسنان وجهاد المنافقين بالحجة واللسان. اهـ.

قلت: وفي عصرنا هذا فإن المتأمل في دعوة أهل السنة والجماعة في البلاد اليمنية على سبيل المثال، الدعوة المباركة التي قام بها الشيخ العلامة المجدد

مقبل بن هادي الوادعي رحمته الله يجد تطبيق هذه السنة، فإنها بدأت من الاستضعاف والغربة وقلة المناصرين واشتداد سواعد أهل البدع.

وهكذا بدأت على ممر السنين تشق طريقها بعون الله تعالى، والفضل في هذا لله وحده، فمن ازدياد في إقبال طلاب العلم، وفي انتشارها في المدن والقرى ومن توسعة مساجدها ودورها شيئاً بعد شيء، حتى أصبحت الآن تملأ السهل والجبل وانتفع منها العرب والعجم، وأقبل طلاب العلم أفواجا من كل أرض الله يلتمسون خيرها ونفعها، وانتشرت سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأحييت كثير من السنن التي كانت قد أُميتت، والفضل في هذا لله، **وهو القائل:**

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة فاطر: ٢].

* نسأل من الله عجل أن يجعلنا من المناصرين والمؤيدين لدعوة سيد المرسلين، وأن يختتم لنا بالحسنى، ويتوفانا مسلمين، وأن يعيدنا من شرفته المحيا والممات، وأنه إذا أراد بعباده فتنة أن يقبضنا إليه غير مفتونين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه: أبو عبد الرحمن

فيصل بن مسفر بن معوض الزنماي الوادعي

فهرس الموضوعات

- ٣ مُقدِّمة الشَّيْخِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ الْحَجُورِيِّ حَفِظَهُ اللهُ
- ٤ مُقدِّمة المؤلف
- ١١ خَصَائِصُ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ
- ١١ ١ - الثَّبَات:
- ١١ ٢ - الْإِطْرَاد:
- ١٢ ٣ - الْعُمُوم:
- ١٣ مَوَارِدُ اسْتِخْرَاجِ السُّنَنِ
- ١٤ ضَوَائِطُ اسْتِخْرَاجِ السُّنَنِ
- ١٤ ١ - وَرُودُ فِعْلِ اللهِ مَعَ تَعْلِيلِهِ:
- ١٥ ٢ - وَرُودُ فِعْلِ اللهِ مَعَ تَعْلِيلِهِ بِالسَّبَبِ، وَحُرُوفِ السَّبَبِيَّةِ مُتَعَدِّدَةٌ:
- ١٨ السُّنَّةُ الْأُولَى
- ١٨ أَذِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَإِخْرَاجُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ
- ٢٢ وَفِي هَذِهِ السُّنَّةِ مِنَ الْفَوَائِدِ:
- ٢٣ السَّنَةُ الثَّانِيَّةُ
- ٢٣ لَا يَعْذِبُ اللهُ أُمَّةً وَنَبِيَّهُمْ فِيهِمْ
- ٢٥ الْفَوَائِدُ
- ٢٦ السُّنَّةُ الثَّالِثَةُ
- ٢٦ إِهْلَاكُ اللهِ لِلْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ

٣٣	الفوائـد:
٣٦	السنة الرابعة
٣٦	الإملاء والاستدراج
٤٠	الفوائـد:
٤١	السنة الخامسة
٤١	الابتلاء
٤٣	أنواع الابتلاءات
٤٧	الفوائـد:
٥١	السنة السادسة
٥١	التدافع
٥٤	الفوائـد
٥٥	السنة السابعة
٥٥	التداول
٦١	الفوائـد:
٦٣	السنة الثامنة
٦٣	الاستبدال
٦٩	الفوائـد:
٧١	السنة التاسعة
٧١	إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

- الفوائد: ٧٦
- السُّنة العاشرة ٧٧
- تَفْضِيلُ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ٧٧
- الفوائد: ٨٣
- السُّنة الحادية عشرة ٨٥
- لا يحق المكر السيء إلا بأهله ٨٥
- الفوائد: ٩٢
- السُّنة الثانية عشرة ٩٣
- الاختلاف ٩٣
- الفوائد: ١٠٥
- السُّنة الثالثة عشرة ١٠٧
- إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ١٠٧
- الفوائد: ١١٤
- السُّنة الرابعة عشرة ١١٥
- الْتِمَكِينُ فِي الْأَرْضِ لِلصَّالِحِينَ ١١٥
- الفوائد: ١٢٤
- السُّنة الخامسة عشرة ١٢٥
- حَقٌّ عَلَى اللَّهِ إِلَّا يَرْتَفَعَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا شَيْءٌ إِلَّا وَضَعَهُ ١٢٥
- السُّنة السادسة عشرة ١٢٨

ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفتت لسانه

١٢٨.....

الفوائد: ١٣٢

السنة السابعة عشرة ١٣٤

الظلم سبب للهلاك ١٣٤

الفوائد: ١٤٠

السنة الثامنة عشرة ١٤٢

أن الله لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم ١٤٢

السنة التاسعة عشرة ١٤٥

ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال ١٤٥

الفوائد: ١٥٠

السنة العشرون ١٥١

كل من افتري على الله الكذب يخيب ولا يفلح ١٥١

الفوائد: ١٥٦

السنة الواحدة والعشرون ١٥٧

إذا طلب الكفار نزول الآيات أو وقوعها، فإنه بعد نزولها إن لم يؤمنوا بها

فسنة الله أنهم لا يؤخرون بعدها، بل يهلكهم ١٥٧

الفوائد: ١٦٠

السنة الثانية والعشرون ١٦١

مَا تَقَابَلَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَيَصِلُ إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ

١٦١.....

السُّنَّةُ الثَّلَاثَةُ وَالْعَشْرُونَ ١٦٧

إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا .. ١٦٧

الفوائد ١٧١

السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ وَالْعَشْرُونَ ١٧٢

أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ١٧٢

الفوائد: ١٧٧

السُّنَّةُ الْخَامِسَةُ وَالْعَشْرُونَ ١٧٨

أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ مَنْ أَرَادَ بِعِلْمِهِ اللَّهَ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، وَيَحْطُ مَنْ أَرَادَ بِعِلْمِهِ الدُّنْيَا،

وَنَسِيَ الذِّكْرَ أَوْ حَرَفَهُ ١٧٨

الفوائد: ١٨٣

السُّنَّةُ السَّادِسَةُ وَالْعَشْرُونَ ١٨٤

نَصَرَ اللَّهُ لِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ١٨٤

الفوائد: ١٩٠

السُّنَّةُ السَّابِعَةُ وَالْعَشْرُونَ ١٩١

أَنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ١٩١

الفوائد: ١٩٥

السُّنَّةُ الثَّامِنَةُ وَالْعَشْرُونَ ١٩٦

- وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ١٩٦
- الفوائد: ٢٠٠
- السنة التاسعة والعشرون ٢٠١
- الجزء من جنس العمل ٢٠١
- السنة الثلاثون ٢١٠
- ابتلاء الله بعض الصالحين بفساد الأقارب وإيذائهم ٢١٠
- السنة الواحدة والثلاثون ٢١٢
- الأسباب والمسببات ٢١٢
- السنة الثانية والثلاثون ٢١٨
- مَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ٢١٨
- السنة الثالثة والثلاثون ٢٢١
- مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ فَيُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا ٢٢١
- السنة الرابعة والخامسة والسادسة والثلاثون ٢٢٢
- مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ - وَمَا ظَلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا
- وَمَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ ٢٢٢
- السنة السابعة والثلاثون ٢٢٨
- وَجُعِلَتِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ٢٢٨
- السنة الثامنة والثلاثون ٢٣١

كُلُّ مَنْ أَمْتَنَعَ أَنْ يَذِلَّ لِلَّهِ أَوْ يَبْذِلَ مَالَهُ فِي مَرْضَاتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَذِلَّ لِلْحَقِيرِ

وَيَبْذِلَ مَالَهُ فِي مَرْضَاتِهِ ٢٣١

السنة التاسعة والثلاثون ٢٣٤

حُكْمُ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ ٢٣٤

السنة الأربعون ٢٣٧

مَنْ تَرَكَ لِلَّهِ شَيْئًا عَوَضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ ٢٣٧

السنة الواحدة والأربعون ٢٤٢

مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ آذَنَهُ اللَّهُ بِالْحَرْبِ ٢٤٢

السنة الثانية والأربعون ٢٤٦

وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ٢٤٦

السنة الثالثة والأربعون ٢٥١

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ٢٥١

السنة الرابعة والأربعون ٢٥٥

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ٢٥٥

السنة الخامسة والأربعون ٢٦١

مَا مِنْ عَامٍ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ ٢٦١

السنة السادسة والأربعون ٢٦٤

مَنْ هَرَبَ مِنَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ وَمَنْ طَلَبَهَا هَرَبَتْ مِنْهُ ٢٦٤

- السنة السابعة والأربعون ٢٧١
- أهل الباطل أهل تعنتٍ وتكذيبٍ وتناقضٍ وتشويه ٢٧١
- السنة الثامنة والأربعون ٢٨٠
- لُجوءُ أهلِ الباطلِ إلى الشِدَّةِ والقُوَّةِ عِنْدَ عَجْزِهِم عَن مُّقَاوِمَةِ الْحَقِّ
بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَّانِ ٢٨٠
- السنة التاسعة والأربعون ٢٨٤
- مُعَامَلَةٌ مَن خَالَفَ الشَّرْعَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ ٢٨٤
- السنة الخمسون ٢٩٠
- سُنةُ اللَّهِ فِي التَّدْرِجِ فِي الْأُمُورِ ٢٩٠
- فهرس الموضوعات ٢٩٥